سام هاريس وماجد نواز

الإسلام ومستقبل التسامح

ترجمة

حيدر عبدالواحد راشد

Islam and the Future of Tolerance

Copyright © 2015 by Sam Harris and Maajid Nawaz

Published by arrangement with Harvard University Press

Translation Published by Bayt Al Hikma 2.0, a program of Ideas Beyond Borders

Translated by Heydar Abdulwahid Rashed

Edited by Ahmed Abdulmajeed

Proofread by Muath Nassar Telfah

This book was made possible by a generous donation by Mary B from the United States of America

هاريس: ماجد، شكرًا لك على تخصيصك وقتًا لهذه المحادثة. أعتقد بأن العمل الذي تقوم به مهم للغاية. لست متأكدا من مدى اتفاقنا حول الإسلام أو حول آفاق إصلاح هذا الدين – وسيكون من المفيد أن نكتشف المساحات التي نتباين فيها – لكني أريدك أن تعرف أن هدفي الأساس هو دعمك.

نواز: ذلك لطف منك، وأنا أقدّر ذلك. كما تعلم، فأنا أعمل في منطقة حساسة للغاية، حيث أمشي على حبل رفيع وأحاول أن آتي إلينا بكثير من الناس لا يريدون، في العديد من الأحيان، أن يمضوا للأمام. ومن المهم جدا أن نجري هذه المحادثة بأشد مسؤولية ممكنة.

هاريس: أتفق. وأرغب في البدء بتذكر أول مرة التقينا فيها، لأنها كانت لحظة كنت تبدو فيها وكأنك تمشي على الحبل. وقد كانت في الواقع لقاءً أولاً غير موفق جدا.

في أكتوبر 2010، حضرت مناظرة «إنتلجنس سكويرد» التي كنت طرفًا فيها ضد صديقيّ: أيان حرسي علي، ودوغلاس موري. والتقينا بعدها في عشاء أقيم للمنظّمين، والمشاركين، وسائر الضيوف. وكان الناس فيها يقدمون ملاحظات وجيزة حول المناظرة ويستكملون النقاش بأنحاء أخرى، وفي نقطة ما قالت أيان: «أود معرفة إن كان لدى سام هاريس شيء ليقوله». ورغم أني كدت أنتهي من كأس فودكا وتونيك في تلك اللحظة، فإني أتذكر معظم ما قلته حرفيا، حيث وجّهت ملاحظاتي إليك مباشرة. لم نكن قد تعارفنا، ولم أملك أي فكرة عن هويتك، وإليك خلاصة ما قلته:

> ماجد، لدي سؤال لك. يبدو لي أن أمامك مهمة شبه مستحيلة، لكنّ كثيرين يعتمدون على قدرتك على تحقيقها. فأنت ترغب في إقناع العالم – والعالم الإسلامي خاصة – بأن الإسلام دين سلام، ولكنّ المتطرّفين اختطفوه. لكنّ المشكلة أن الإسلام **ليس** دين سلام، ومن يسمون «بالمتطرفين» يسعون لتطبيق ما قد يُعتبر أصدق قراءة للعقيدة الأصيلة للدين. وهكذا فإن مناوراتك على المنصة هذه الليلة – أي الادعاءات التي أقمتها حول تفسير النص المقدس، والسياق التاريخي الذي يجب أن تُفهم ضمنه آيات معينة من القرآن – تبدو غير صادقة.
>
> جميع الحاضرين في الصالة يعترفون بأن لديك أصعب وظيفة في العالم، والجميع ممتنون لك لأنك تقوم بها. فلا بد أن يحاول أحد ما إصلاح الإسلام

من الداخل، وواضح أنه لن يكون مرتدًا مثل أيان، أو كافرًا مثلي ومثل دوغلاس. لكنّ طريق الإصلاح يبدو طريقا من التظاهر. إذ يبدو أنك ملزم **بالتظاهر** بأن العقيدة مختلفة عما هي عليه – فعليك مثلا أن تتظاهر بأن الجهاد مجرد صراع روحي داخلي، لكنّه في الأساس عقيدة للحرب المقدسة. أودّ أن أعرف إن كان ذلك، في الواقع، هو الموقف كما تراه. هل الطريق إلى الأمام مسألة تظاهر بأن أشياء معينة صحيحة لمدة كافية وبشدة كافية لأجل أن **تجعلها** صحيحة؟

يجدر بي تأكيد أني كنت أحاول إجراء هذه المحادثة معك في سياق شبه علني. لم يكن أحد يسجّلنا، على حد علمي، ولكن ظل هناك حوالي خمسة وسبعين شخصا يستمعون إلينا، وأتساءل إن كنت تتذكر أني قلت هذه الأشياء، أو تتذكر ردك عليّ آنذاك.

نواز: نعم، أتذكر ذلك. ويسرني أنك ذكّرتني به، إذ لم أكن قد ربطته بك. وأنا ممتن لك لتذكيري بأنه رغم أننا لسنا على الهواء، فهناك كثيرون غيرنا بين الحضور. في خاطري، كان من المهم داخل الغرفة كما في خارجها أن يأخذ الناس ما أقوله على محمل الجد. في الواقع، فإن رغبتي في التأثير برسالتي في مجتمعات الأقلية المسلمة قوية بقدر رغبتي في التأثير في مجتمعات الأكثرية المسلمة. وجزء مما أسعى لفعله هو بناء تحالف عريض من أناس يغنون نفس النغمة. ولا يتطلب ذلك أن يصبحوا جميعا مسلمين أو غير مسلمين. بل على العكس، فما يمكن أن يوحدنا هي مجموعة من القيم المحايدة دينًيا. وعبر التركيز على عالمية القيم الإنسانية، الديمقراطية، والعلمانية (بالمعنى البريطاني والأميركي لهذه الكلمة)، يمكن أن نصل إلى مساحة مشتركة. ويتبع ذلك أن كل المستمعين في حاجة للإصغاء لهذه الرسالة. ولذا، حتى داخل تلك الغرفة، فقد كانت الفرصة مواتية. وخسارة ذلك الجمهور كانت عندئذ ستحقق مخاوفي: من استقطاب هذا النقاش بين من يصرون على أن الإسلام دين حرب ويمضون قدما في الحرب لأجله، ومن يصرون على أن الإسلام دين حرب ويمضون قدما في الحرب ضده، وسيكون هذا موقفا يتعذر علاجه.

لنذهب الآن إلى تفاصيل سؤالك، فقد أجبت بذلك النحو لأني شعرت بأنك تُلمّح إلى أني أتظاهر بادّعائي أنّ الإسلام دين سلام. ولو أسعفتني الذاكرة فقد قلتَ: «ذلك مفهوم في السياق العام، ولكن في هذه الغرفة هنا، ألا يمكنك أن تكون صادقًا معنا؟»

هاريس: نعم، ذلك ما قلته بالضبط.

نواز: نعم. «ألا يمكنك أن تكون صادقا معنا هنا؟» تلمح إلى أني لم أكن صادقا عندئذ. لكنّ رؤيتي الصادقة هي أن الإسلام ليس دينَ حرب **أو** سلام – بل دينًا فقط. فنصوصه المقدسة، كنصوص سائر الأديان، تتضمن آيات قد يعتبرها كثيرون إشكالية للغاية. وبالمثل، فكل النصوص المقدسة تتضمن آيات بريئة. إن الدين لا يفصح بذاته عن نفسه؛ فما من نص مقدس، أو كتاب، أو قطعة مكتوبة تملك صوتها الخاص. وأنا أعتمد هذه الرؤية سواء أكنت أفسر شكسبير، أو أفسر النصوص الدينية.

ولذا فإني لم أكن كاذبًا في قولي إن الإسلام دين سلام. حظيت من ثَمّ بفرصة للتوضيح في ملتقى ريتشموند، حيث ناقشنا أنا وأيان ذلك مجددا. فالنص الديني موجود؛ والبشر يفسرونه. أما في «إنتلجنس سكويرد»، وتحت القيود غير المألوفة للموقف في المناظرة، فقد أكدت أن الإسلام دين سلام فقط لأن الأغلبية الساحقة من المسلمين اليوم لا يعتقدون أنه دين حرب، ولو ثبت أن الإسلام ليس سوى ما يفسره أتباعه، فهو في الحاضر دين سلام.[1]

جزء من تحدينا يتمثل بتحفيز وتنظيم هذه الأكثرية الصامتة ضد الجهادية، حتّى تتمكّن من البدء بتحدي سردية العنف التي روّجت لها الأقلية المنظمة التي تهيمن الآن على الخطاب. وهذا ما كنت أنادي به فعلا في نقاش «إنتلجنس سكويرد»، لكنّ الموقف أجبرني على لزوم أحد الجانبين: الحرب أو السلام، وقد اخترت السلام.

هاريس: أفهمك. كان قصدي من تذكّر تلك اللحظة هو عدم تحميلك المسؤولية عن ردك الأصلي عليّ، فلعل الحال أن تفكيرك قد تطور إلى حدّ ما منذئذ. ولكن محادثتنا قد انفرطت بشكل مفاجئ عند تلك النقطة، ولا أذكر كيف أكملناها.

نواز (ضاحكا) : لا أذكر إن كنا قد أكملناها.

---

1 إن كان الإسلام عموما (أو كليا) هو ما يتصوره المسلمون عنه، فمن المهم أخذ حالة الرأي العام المسلم بالحسبان. فقد أظهر استطلاع في عام 2013 من مؤسسة Pew أجري في 11 دولة ذات أكثرية مسلمة أن دعم التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين دفاعا عن الإسلام قد انخفض في السنوات الأخيرة.

ومع ذلك، فإن عدد الناس الذين ما زالوا يظنون أن هذا الشكل من العنف ضد المسالمين مبرر «عموما» أو «أحيانا» مثير للقلق: مصر (25%)، إندونيسيا (6%)، الأردن (12%)، لبنان (33%)، ماليزيا (27%)، نيجيريا (8%)، باكستان (3%)، السلطة الفلسطينية (62%)، السنغال (18%)، تونس (12%)، وتركيا (16%). هناك 1.6 مليار مسلم حول العالم. وحتى لو كان 10% منهم يدعمون التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين دفاعا عن الإسلام، فهذا يعني 160 مليون مؤيد للإرهاب. (www.pewglobal.org)

هاريس: حسنا، لنستمر بروح أشد تفاؤلا مما كان لقاؤنا الأول سيبرره، لأن أمامنا الكثير مما نتحدث عنه. ولكن قبل أن نوغل في المشكلات، أظن أن علينا أن نبدأ بخلفية حياتك، التي أراها مذهلة. ربما يمكنك أن تخبر قراءنا لماذا تقف اليوم في موقع يؤهلك لمعرفة الكثير حول المشكلات التي سوف نتناولها.

جذور التطرف

نواز: إن صيغة مفصلة من قصتي متوفرة في سيرتي الذاتية، «**راديكالي**». لكني سألخصها هنا. ولدت ونشأت في إيسكس، في المملكة المتحدة، وترعرعت خلال ما أسميه بالأيام العصيبة للعنصرية في بلادي. حيث قادت قضية غيّرت مسار العلاقات العرقية في المملكة المتحدة، وهي مقتل ستيفن لورنس، إلى تحقيق حكومي تمخض عن تقرير مكفيرسون.[2] وهذا التقرير هو الذي صاغ مصطلح «العنصرية المؤسسية» وحكم بوجودها في قوات الشرطة البريطانية. وكانت هذه إدانة فادحة.

وصلت للنضج في وقت يسبق بالضبط هذا التبدل في الوعي الجمعي. فقد تعرضت للعنصرية المؤسسية في عدة مواقف وأصبت بخيبة أمل شديدة في المجتمع السائد نتيجة لذلك، كما اعتقلت خطأ في عدة مواقف. وكان هذا التمييز يحدث في حياتنا اليافعة ونحن نشهد فصول المأساة البوسنية تتكشف في القارة الأوربية.

من الطبيعي إذن أن يصبح جيلي محبطًا، خائب الأمل، ومنفصلا عن المجتمع. ومن خلال أزمة الهوية العميقة هذه دخلت الجماعة الإيديولوجية الإسلاموية التي انضممت لها في النهاية. هذه الجماعة، **حزب التحرير**، ذات طابع ثوري، لا تزال نشطة حول العالم، وهي قانونية في الغرب. كان حزب التحرير، الذي تأسس عام 1953 في القدس خلال أزمة هوية إسلامية سابقة بعد تأسيس إسرائيل، أول جماعة إسلامية تروج لفكرة خلق «خلافة» ثيوقراطية أو «دولة إسلامية». وبدلا من الإرهاب، فأعضاؤها يستخدمون التجنيد والكسب للرأي العام المسلم، وهدفهم النهائي يتمثل بالتحريض على انقلابات عسكرية في بلدان ذات أغلبية إسلامية مثل مصر، تركيا، وباكستان من أجل الوصول للسلطة.

لقد انضممت لهذه المنظمة كمراهق في السادسة عشرة، مضطهد بعمق، ولعله متضرر، بوصفه ضحية للعديد من الهجمات العنصرية العنيفة للغاية. لكن تظلماتي تجمدت لوقت

---

2 نُشِر تقرير مكفيرسون في فبراير 1999 في أعقاب المقتل المشين ذي الدوافع العرقية لشاب بريطاني أسود مراهق، يدعى ستيفن لورنس: «يعتبره العديد لحظة تحول في العلاقات العرقية البريطانية... فقد قدم تقرير مكفيرسون تقييما قاسيا ‹للعنصرية المؤسسية› ضمن شرطة لندن وسلوك الشرطة إجمالا. واقترح 70 توصية كان هدف العديد منها هو تحسين مواقف الشرطة من العنصرية، وأكد على ضرورة الزيادة السريعة في أعداد ضباط الشرطة السود والآسيويين». (راجع http://news.bbc.co.uk/news/vote2001/hi/english/main_issues/sections/facts/newsid_1190000/1190971.stm).

طويل بفضل العقيدة الإيديولوجية التي آثرتُ أن أتبناها. وقد اخترت كلماتي هنا بعناية. فالتظلمات بحد ذاتها لا تكفي لدفع أي شخص للراديكالية، بل هي نصف الحقيقة. ويمكن تلخيص مقصدي بأفضل نحو كالآتي: حين فشلنا في الغرب في التدخل في الإبادة البوسنية، اتجه بعض المسلمين للراديكالية؛ حين تدخلنا في أفغانستان والعراق، اتجه المزيد من المسلمين للراديكالية؛ وحين فشلنا في التدخل في سوريا، اتجه المزيد والمزيد من المسلمين للراديكالية. لكن سردية المظالم التي تُلقي باللوم على السياسة الخارجية ليست سوى نصف القصة؛ ولا تكفي كتفسير لنشوء الراديكالية.

هاريس: إن هذا الموضوع عن التدخل الخارجي والتظلم الإسلامي حرج للغاية، وكلي ثقة بأنا سنعود إليه. ولكن يبدو لي أن هناك أمرين جعلا التدخل الغربي في البوسنة فريدا، ومهينا بشكل فريد من نظرة إسلامية. فنحن لم نضطر لغزو دولة مسلمة لفعل ذلك، وتضمنت العملية قصف **غير المسلمين**. وكما رأينا في الصراعات حديثة العهد، فلو تبدل أي من هذين المتغيرين، فإن نسبة كبيرة من المسلمين كانت ستعتبر هذه العملية كفرا بالدين، مهما كان عدو القوى الغربية شريرا أو علمانيا. وصدام حسين أفضل مثال هنا: فقد كان طاغية علمانيا مكروها حول العالم. ولكن ما أن هاجمه تحالف من الدول غير المسلمة، استشاط أكثر العالم الإسلامي غضبا لأن «أراضي إسلامية» تتعرض لغزو الكفار. هناك بالطبع العديد من الأسباب المعقولة تماما لمعارضة حرب العراق، لكنّ ذلك ليس منها. فإحدى المشكلات مع الدين هو أنه يخلق الولاء ضمن الجماعة والعداء لمن خارجها، حتى لو تصرف أفراد من جماعة المرء كسيكوباثيين. وأضيف هنا أننا حين تدخلنا أخيرا في البوسنة، ولأسباب إنسانية خالصة، لم نحصل على تقدير كاف لذلك.

نواز: بلا شك. لكني أذكره فقط لأن المظالم تلعب دورا مهما في تحضير الشباب الضعفاء، الذين يعانون أزمة هوية عميقة، لتلقي العقيدة الإيديولوجية عبر مجندين جذابين. وما أن تُتلقّى العقيدة، فهي تؤطر رؤية المرء للعالم، العدسة التي يدرك الآخرون من خلالها، والوسيلة التي يجند بها الآخرون؛ بل تستحيل إلى اللغة التي نتحدث بها. ومن المهم أن نفهم ذلك، لأن المظالم ستظل قائمة دوما. فقد وجدت منذ قديم الزمان، وستظل موجودة حتى نهاية الزمان. وهناك مجتمعات أخرى تواجهها أيضا، لكن هذه الظاهرة الإيديولوجية المحددة لم تظهر إلا في سياقات معينة. فالناس كثيرا ما يلومون الفقر أو غياب التعليم مثلا في نشوء الراديكالية، رغم أن الخبراء أدركوا منذ وقت طويل أن عددا غير متوقع من

الإرهابيين جاؤوا من خلفيات رفيعة التعليم.[3] وهكذا، وفي عمر السادسة عشرة، تبنيت رؤية إيديولوجية جمّدت حسي بالمظالم وحوّلته إلى عقيدة. ثم بدأت بالتجنيد بكثافة لصالح حزب التحرير؛ وأتحمل حصتي من المسؤولية عن ترويج فكرة خلافة ثيوقراطية.

هاريس: هل كنتم تسعون لترويج هذه الآراء في المملكة المتحدة أم عالميا؟

نواز: عالميا. فقد انتشرت الجماعة من القدس إلى الأردن، ومن الأردن إلى سوريا والعراق، وأخيرا إلى مصر. ومن ثم انتشرت من الشرق الأوسط إلى الغرب، ووصلت من الغرب إلى تركيا عبر مسلمي ألمانيا، وإلى شمال أفريقيا عبر مسلمي فرنسا، وإلى جنوب آسيا عبر مسلمي بريطانيا ذوي الأصول الهندية والباكستانية والبنغالية. وبوصفي مجندا عالميا، فقد صدّرتُ الإسلاموية الثورية من بريطانيا إلى باكستان، والدنمارك، وأخيرا مصر.

في عام 1999، في وسط دراستي للقانون واللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، أخذت إجازة لمدة عام وذهبت إلى باكستان بأوامر من حزب التحرير، كي أعاون في تأسيس فرع باكستان. فقد اختبرت باكستان للتو قنبلتها النووية قبل عام، وكان الزعيم العالمي لجماعتنا يطمح إلى خلافة نووية.

أينما وضعنا الأساس لهذه المنظمة، فقد كنا نستهدف ضبّاط الجيش على نحو خاصّ، كي نتمكن من شنّ انقلابات عسكرية. وفي عام 2000، بعد عودتي من باكستان، شاركت شخصيا في أحاديث مع طلاب باكستانيين جاؤوا للدراسة في أكاديمية ساندهيرست الملكية العسكرية في بريطانيا. ومنذئذ شهدت باكستان محاولات انقلاب محبطة قادتها منظمتي السابقة، وتحدثت الصحافة عن بعضها.[4]

---

3 راجع دراسة مارك سيجمان عن الجهاديين المدانين في كتابه **Leaderless Jihad** (جهاد بلا قادة) (فيلادلفيا: مطبعة جامعة فيلادلفيا، 2008).

4 في أغسطس 2003، أعلنت القوات المسلحة الباكستانية عن القبض على عدة ضباط باكستانيين «متعاطفين مع جماعات متطرفة». كان المعتقلون أعضاء من حزب التحرير اخترقوا القوات المسلحة. وكان بعضهم أفرادا ساعدت شخصيا على تجنيدهم من لندن عام 2000. وعند عودتي إلى لندن عام 2006، بعد الإفراج عني من السجن في مصر، التقيت بعضو بريطاني-باكستاني في حزب التحرير يدعى عمر خان، كنت مسؤول ارتباط بخليته العسكرية في باكستان. وقد أكد لي أن من كنت على اتصال بهم قد اعتقلوا وحقق معهم ومعه أيضا، وفي حين طرد هو إلى بريطانيا، فقد ظلوا محتجزين. وفي ذلك الوقت، كان حزب التحرير لا يزال مشروعا في باكستان (راجع http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/asia/pakistan/1440284/Pakistan-army-officers-arrested-in-terror-swoop.html). ومرة أخرى، في مارس 2012، أعلنت القوات المسلحة الباكستانية عن الاعتقال والإحباط لمحاولة

كنت عندها قد عاودت دراستي في لندن، لكني كنت أسافر إلى كوبنهاغن كل نهاية أسبوع لأجل تأسيس الفرع الدنماركي-الباكستاني للجماعة. وفي عام 2001 ساقتني الدراسة إلى مصر من أجل إتمام عام من دراسة اللغة العربية، حيث وصلت قبل يوم من هجمات 9/11. ولأني لم أفهم كلياً أهمية هذه الهجمات، فقد واصلت التجنيد في أرجاء مصر من أجل قضيتي. وفي أبريل 2002 هاجم ضباط أمن الدولة المصريون سكني في الإسكندرية، حيث عُصبت عيناي، وشُدّت يداي خلف ظهري، وسيق بي إلى مقر أمن الدولة في القاهرة، حيث شاهدت سجناء آخرين يعذبون بالصعق الكهربي، وكنت حينها في الرابعة والعشرين.

بعدما حكم عليّ بالسجن لخمسة أعوام كسجين سياسي في سجن مزرعة طرة، قامت منظمة العفو الدولية بخطوة شجاعة هي اعتباري سجينا في قضية ضمير. ورغم أن منظمة العفو كانت تختلف مع ما أعتقد به، فقد كان رأيها أننا لم نرتكب جريمة معينة في مصر — وهو أمر صحيح — وأن جماعتي كانت مشروعة في بريطانيا، حيث انضممت إليها. وفي مصر بالذات، وفي السجن حيث أحاطني طيف الإسلاميين بأكمله — من قتلة رئيس مصر السابق أنور السادات، إلى المرشد الدولي السجين حاليا لجماعة الإخوان المصرية، محمد بديع — بدأت حقا في استكشاف الإيديولوجيا التي اعتنقتها، والقضية التي تبنيتها بتلك الحماسة في سن السادسة عشرة.

إن التضافر بين محادثاتي التصحيحية المطولة مع سجناء آخرين، وتواصل منظمة العفو الدولية معي، هو ما أخذ بيدي في هذه الرحلة الطويلة، نحو منظور علماني، ليبرالي، مؤمن بحقوق الإنسان. في عام 2006، أفرج عني وعدت إلى لندن. وفي عام 2008، خلال إكمالي لدراسة الماجستير في الفكر السياسي في مدرسة لندن للاقتصاد، أسست ثم ترأست منظمة «**كويليام**»، أول منظمة مناهضة للتطرف في العالم.

انقلابية قادها العميد علي خان، الذي كان محسوبا على حزب التحرير (راجع http://www.nytimes.com/2012/08/04/opinion/hizb-ut-tahrir-threatens-pakistan-from-within.html?_r=0).

اتساع المشكلة

هاريس: أراك في عملك تفرّق بين «الإسلاميين الثوريين» و «الجهاديين»، وأظن أن علينا تعريف هذه الألفاظ. كما أود أن أعرف كيف ترى أن الرأي العام منقسم في المجتمعات الإسلامية. أتصور شخصيا عدة دوائر متحدة المركز: في القلب منها جماعات كالدولة الإسلامية،[5] القاعدة، تنظيم الشباب، بوكو حرام، وهلم جرا. يستيقظ أعضاؤها كل صباح كما يبدو وكلهم توق لقتل الكفار والمرتدين. ويبدو العديد منهم متشوقين للشهادة خلال ذلك. ويشير معظمنا إلى هؤلاء باسم «الجهاديين». ومن ثم فهناك دائرة أوسع من الإسلاميين ذوي الدوافع السياسية في الأغلب، الذين يبدون أقل شوقا للقتل والقتال. ومن بعدهم هناك دائرة أعرض من المسلمين الذين ربما يدعمون الجهاد والإسلاموية — ماليا، معنويا، أو فلسفيا — لكنهم لا يميلون لتوسيخ أيديهم. وأخيرا، كما يأمل المرء، فهناك دائرة أكبر بكثير مما يعرف بالمسلمين المعتدلين، سواء وصفوا أنفسهم بهذا النحو أم لا، الذين يرغبون في العيش وفق قيم أحدث. ورغم أنهم قد لا يكونون علمانيين جدا، فهم لا يعتقدون بأن جماعات كالدولة الإسلامية تمثل دينهم، ولعل هناك أيضا ملايين المسلمين العلمانيين بحق الذين لا يملكون صوتا فحسب. أتساءل إن كنت تعتقد أن فهمي لهذه الأصناف صحيح، وإن كان صحيحا، فما هي نسبة كلّ منهم من الـ 1.6 مليار مسلم الذين يعيشون في الكوكب.

نواز: واضح أن الجواب لن يكون تجريبيا، لكنني سأعطيك تخميني. استكمالا لصورتك عن الدوائر متحدة المركز، ففي القلب، كما قلتَ وأنت محقّ، يقع الجهاديون. ومن بعدهم جماعة أكبر من الإسلاميين. لئلا تراود قراءنا أي شبهة، فحين أقول «إسلاموية»، فأنا أعني الرغبة في فرض أي تفسير للإسلام على المجتمع، وحين أقول «جهادية»، فإنني أعني استخدام القوة لنشر الإسلاموية.

الإسلاموية والجهادية **قراءتان معاصرتان مسيّستان** للإسلام والجهاد؛ وليسا الإسلام والجهاد بحد ذاتهما. فالإسلام، كما قلت، دين تقليدي كأي دين آخر، زاخر بالفِرَق،

5 لقد اخترنا استخدام تسمية «الدولة الإسلامية» دون تحيز، ببساطة لأن هذا هو الاسم الذي تطلقه هذه الزمرة على نفسها، وهكذا أصبح الإعلام يشير إليها بنحو مطرد. وليس هذا الاستخدام حكما منا على صلاحية ادعاءات هذه الزمرة أنها تمثل الإسلام «الصحيح» أو أنها قد أسست خلافة. وهذا الكتاب يمثل بحد ذاته تمحيصا موسّعا لصلاحية ادعاءات كهذه.

والطوائف، والقراءات المتباينة. لكن **الإسلاموية** هي الرغبة في فرض أي من هذه القراءات على المجتمع. وعادة ما يعبر عنها كرغبة في فرض شكل من الشريعة كقانون.

يسعى الإسلاميون السياسيون لفرض آرائهم عبر صندوق الاقتراع، ويتمهلون حتى يتمكنوا من اختراق مؤسسات المجتمع من الداخل. أما الإسلاميون الثوريون فيسعون للتغيير من خارج النظام بضربة واحدة نظيفة. والإسلاميون المسلحون هم الجهاديون.

واضح أنه ما من قراءة تقليدية للجهاد يمكن أن تتجاهل فكرة الكفاح المسلح، ومن السذاجة بمكان أن نؤكد أن المسلمين لم يعنوا بالجهاد إلا الصراع مع النفس **فقط**. ولكنّ كل النزاعات المسلحة، ضمن سياق ديني أو بدونه، يمكن أن تكون دفاعية أو هجومية، عادلة أو جائرة، رادّة أو وقائية، وإرهابية أو عسكرية بنحو مألوف. ويشير استخدامي للجهادية إلى نوع محدد من الكفاح المسلح فقط، بغض النظر عن أي صنف ثانوي ينطبق عليه، ما دام يسعى لنشر الإسلاموية.

لا أملك سوى هذين التعريفين، ولم أعثر بعد في حياتي وأنا أعمل في هذا المجال على أي تعريف يبدو أدق منهما. وللآخرين تعريفاتهم أيضا.

هاريس: إذن فالإسلاموي يسعى لفرض نسخته من الإسلام على سائر المجتمع، والجهادي إسلاموي يسعى لفعل ذلك بالقوة.

نواز: ذلك صحيح.

هاريس: هذا التوضيح مفيد للغاية.

نواز: لننتقل الآن إلى دوائرك متحدة المركز. في مركز الدائرة الداخلية تقع الدولة الإسلامية حاليا، التي غطت الآن على القاعدة. وأعضاؤها هم من أسمّيهم بالجهاديين العالميين. ثم يأتي دور الجهاديين المحليين. وهم أيضا يستخدمون القوة لنشر الإسلاموية، لكنهم يميلون للتقيد ببؤرة جغرافية وديمغرافية معاً، وهم أقل انفلاتا، وتنتمي حماس وحزب الله لهذا الصنف. يظل الجهاديون، وفق أي وصف، أقلية من المسلمين في العالم، لكنهم الأشد تنظيما ويملكون السطوة الأكبر، ويهيمنون على الخطاب لأنهم عنيفون. فالدولة الإسلامية تتحكم بمساحة هائلة، ويمكنها جني ملايين الدولارات يوميا من عائدات النفط، والابتزاز، والتهريب.

فيما وراء الجهاديين يقع سائر الإسلاميين، وهم جماعة أكبر بكثير. يأتي أولا الإسلاميون الثوريون، الأقرب إلى الجهاديين في تنظيرهم، ثم يأتي الإسلاميون السياسيون، الذين يمثلون أكثرية الإسلاميين كافة لكنهم يظلون أقلية بين المسلمين. وكما شهدنا في

الجولة الأولى من الانتخابات في مصر، فقد حازت جماعة الإخوان المسلمين 25% فقط من الأصوات. أما المركز الثاني فقد فاز به رئيس وزراء مبارك السابق، أحمد شفيق، بنسبة 24%. ولم يكن هامش الـ 1% كافيا لأن تعلن الجماعة فوزها. أما في السباق الرئاسي بين شفيق ومحمد مرسي، فعلى الرغم من الأصوات المحتجة الواضحة ضد شفيق (الذي هوجم لعلاقته بالنظام السابق)، فإنّ الجماعة لم تحصل إلا على 51% من الأصوات. وهذا يعني أن العديد من المصريين صوتوا للإخوان المسلمين في الجولة الثانية فقط كي يحولوا دون عودة رئيس وزراء مبارك السابق. ولذا فمن المعقول أن نخمن أن أقدم وأكبر جماعة إسلامية في العالم، في أوج سطوتها، لم تستطع أن تجمع إلا قرابة 25% من الدعم المخلص.

هاريس: كم هي نسبة الإسلاميين من المسلمين حول العالم في تقديرك؟

نواز: أستخدم مصر كمثال نظرا لنجاح الإخوان الواضح فيها. فلو لم تستطع الجماعة في مصر أن تجمع أكثر من 25% في الجولة الأولى من الانتخابات، فلعلها أقل شعبية في سائر مجتمعات الأكثرية المسلمة. هذا ما أشعر به شخصيا، ولا أملك دليلا تجريبيا.

هاريس: في الواقع، قامت مجموعة بتحليل السنين الأربعين الأخيرة من الانتخابات النيابية في بلدان الأكثرية المسلمة، ووجدت أن الأحزاب الإسلامية في المعدل حصلت على 15% من الأصوات.[6] لكنّ نتائج الاستفتاءات حول موضوع الشريعة عادة ما تُظهر مستويات دعم أعلى بكثير لتطبيقها كقتل الزاني، قطع يد السارق، وما شاكل. لا أدري كيف أفكر حيال مجتمع يصوت فيه 15% من الناس لحزب إسلامي، لكن 40% أو حتى 60% يرغبون بقتل المرتدين.[7] ولو كان ذلك يعني شيئا، فهو أن نسبة الإسلاميين أعلى بقليل. كنت أقول إن نسبتهم تقارب 20% حول العالم، وهو تقدير أعتبره شديد التحفظ، لكن المدافعين عن الإسلام يعتبرونه خيالا جامحا يكشف عن تعصبي وارتيابي.

نواز: أرى من المفيد للغاية أن يركز الناس على الأفكار التي نناقشها هنا، بدلا من إلقاء التهم عليك، وهي طريقة سهلة لتجاهل أفكارك. كما أني قدّرت، مستخدما مصر مثالا،

6 C. Kurzman and I. Naqvi, "Do Muslims Vote Islamic?" Journal of Democracy 21, no. 2 (April 2010).

7 لقد حظي الرأي العام المسلم حول تطبيق الشريعة باستطلاعات مكثفة، منها مثلا: http://www.pewforum.org/2013/04/30/the-worlds-muslims-religion-politics-society-beliefs-about-sharia/.

نسبة الإسلاميين حول العالم بأنها أقل بقليل من 25% (واضعا بالحسبان أن جماعة الإخوان وصلت إلى قمّتها عند 25% في مصر)، ولذا فإني لا أظن أنك قد أخطأت الهدف جدا. وفي نظري، فإن أي مجتمع يصوت فيه 15-20% من الشعب للإسلاميين هو مجتمع يواجه أزمة هوية خانقة، ولا يزال يناضل كي يصل لتفاهم مع تحديات العولمة.

أما عن نقطتك الخاصة بنسب الدعم الأعلى حين يُسأل المسلمون بالخصوص حول أمور مثل حد القتل للردة، فأنا أعتقد أنها نابعة من تفسير عتيق للشريعة. ولكن نظرا لتعريفيّ، فإني لن أصنف أصوليين كهؤلاء كإسلاميين. فتأييدهم لقتل المرتد ينبع أكثر من رغبة قبلية قروسطية في معاقبة «الخوارج»، يبررها النص الديني، بدلا من إيمان بالمشروع الإيديولوجي الإسلامي لتحويل الشريعة لقانون وفرضها على المجتمع. لا يعني ذلك أن هذه المواقف صحية – بل على العكس، فهي إشكالية للغاية. لكنها تمثل جملة مشاكل مختلفة ومتراكبة أحيانا **تضاف إلى** الإسلاموية.

في الواقع، يعرف عن نفس هؤلاء الأصوليين في عدة مواقف أنهم يعارضون الإسلاميين بعنف، حيث يعتبرونهم بالإجمال نتاجا للحداثة الغربية تولد عن الإبداعات الغربية لتدوين القانون في نظم تشريعية أحادية. وخير شاهد على ذلك هو الحركة المحافظة وفيرة التوثيق ضد حركة «جماعت إسلامى» السياسية في شبه القارة الهندية خلال تقسيم باكستان. حيث كان البريلويون[8] يرددون هتافا مبغضا لليهود بالأردو ضد المودودي مؤسس الجماعة: «سو يهودى ايك مودودى»، أو «مئة يهودي ولا المودودي!» ورغم أن هذا الشعار مقيت، فهو يوضح نقطتي حول العداء بين العديد من الأصوليين والإسلامويين. إن ممتاز قادري الذي اغتال سلمان تاثير، مصلح قانون ازدراء الأديان وحاكم البنجاب في باكستان، ينتمي لنفس حركة البريلوية هذه.

وهذا يقودنا بالضبط إلى الدائرة اللاحقة، وهي الأكبر حتى الآن: المسلمين المحافظين دينيا. سواء نظر المرء إلى باكستان، إندونيسيا، ماليزيا، مصر، أو دول الخليج، فإن أكثرية المسلمين محافظون حاليا، بل قد يسميهم البعض أصوليين. ولنسمهم محافظين فحسب، لأنهم لا يسلّمون كليا بحقوق الإنسان الليبرالية المعاصرة.

هاريس: أين ترسم الخط بين الإسلام المحافظ والإسلاموية؟ بعبارة أخرى: ما الذي يمنع المحافظين من الرغبة في فرض الإسلام على سائر المجتمع؟

---

8 طائفة سنية كبيرة بين مسلمي الهند، تشتهر بتصوفها المغالي والتزامها المتشدد بالفقه الحنفي. اكتسبت اسمها من زعيمها الإمام أحمد رضا خان البريلوي (1856-1920) الذي قاوم انتشار السلفية (تحت عنوان «أهل الحديث») في شبه القارة الهندية. – المترجم

نواز: أمور عديدة. لنأخذ مصر مجددا كمثال. مصر بلد متدين محافظ، لكن الأكثرية الساحقة من مسلمي مصر رفضوا حكومة الإخوان المسلمين في النهاية، وعبروا عن أنفسهم فيما قد يكون أضخم احتجاج في تاريخ البلاد. وقد أيدهم العديد من الفقهاء المصريين في فعل ذلك. لكن هذه الاحتجاجات قادت لسوء الحظ إلى انقلاب عسكري شعبوي، بدلا من انتخابات أخرى، للإطاحة بالإخوان. وهذا مما يؤيد نقطتي القائلة بأنه رغم عدم اختيار المحافظين المصريين للديمقراطية العلمانية الليبرالية، فقد رفضوا الإخوان المسلمين بصوت مدوٍّ.

تقدم تونس مثالا آخر، فقد أدت انتخابات 2014 هناك إلى رفض التونسيين العرب المسلمين لحكومة حزب النهضة – ذي الجذور الإسلامية – والتصويت لحزب علماني بدلا منه. والخبر السار هو أن حزب النهضة تنازل سلميا، بل دعم إرادة الشعب علنا بوصفها مصدر السيادة.

ينظر معظم المسلمين التقليديين للإسلاموية كتسييس خاطئ لدينهم. ومع أنهم شديدو التحفظ في أسرهم ونمط حياتهم – لدرجة أنهم يمثلون بعض التحديات الأكيدة لحقوق الإنسان – فهم في العموم لا يرغبون في فرض الدولة لدينهم، لأنهم يرغبون في الحفاظ على حقهم في امتلاك فهمهم الخاص لما تعنيه هذه المحافظة الدينية.

هاريس: لافت جدا. إذن فحين نتحدث عن ظاهرة مثل جرائم الشرف، لا نقلق فقط من الإسلاميين، بل نقلق حول الكيفية التي قد يعامل الرجل المسلم المحافظ العادي زوجته أو ابنته بها في ضوء إيمانه الديني وقيمه الثقافية. ومع ذلك فإنّ العديد من هؤلاء المحافظين قد يكونون أعداء للإسلاموية.

نواز: نعم. قد يكون المسلمون المحافظون حلفاء مفيدين للغاية ضد الإسلاموية والجهادية، لكنهم قد يعارضونك في حقوق الجنسين والمساواة، وفي بعض الحالات، جرائم الشرف. ولذا فإن الموضوع المطروح سيؤثر على تحالفهم أو عدمه معك.

قد يكون المسلمون المحافظون شديدي الجرأة ضد القاعدة مثلا، لأنهم يعتقدون أنها تختطف دينهم. وأكثرية المسلمين في السعودية، وإندونيسيا، وباكستان، ومصر مثلا محافظون. وذلك يزيد الأمور تعقيدا، لأننا الآن نواجه تحديين مختلفين للغاية: نحارب الإسلاموية والجهادية من جهة، ونروج لحقوق الإنسان والثقافة الديمقراطية من جهة أخرى. وقد يكون المسلمون المحافظون حلفاءنا في هذه لا تلك. وذلك هو ما يجعل المسلمين الليبراليين أصحاب الفكر الإصلاحيّ في موقف صعب للغاية.

هاريس: هذا تمييز آخر مفيد للغاية.

نواز: تذكّر أني صنفت أكثرية المسلمين كمحافظين: فرغم أن المحافظين قد لا يكونون جميعا مسلمين «ملتزمين»، فإن آراءهم تميل لأن تعكس القيم الإسلامية التقليدية. ولكنّ جماعة أصغر فيما عداهم هم المسلمون الإصلاحيون، وهم من أمثال أشهر عقائدي إصلاحي في المملكة المتحدة، د. أسامة حسن. فهم يحاولون تحدي الإسلاموية مباشرة، وكذلك إصلاح بعض التفاسير الأشد تحفظا للدين. أعني «بالإصلاح» تجديد أو تحديث التفاسير، دون أي إشارة محددة إلى الإصلاح المسيحي. وهؤلاء الإصلاحيون في اعتقادي هم زبدة القوم من حيث امتلاكهم للصلات والذكاء الكافي لتناول هذا النقاش. وآمل أن يكون المستقبل لهم، ولو كان الأمر بيدي، فسيكون لهم.

كما ذكرت، فقد شاركت في تأسيس «**كويليام**» التي أرأسها، وهي أول منظمة مناهضة للتطرف في العالم، ومقرها في لندن. ومهمتنا التي لا نحسد عليها هي مواجهة من يلجؤون للإسلاموية أو سائر أشكال التطرف الثقافي، وترويج الرسائل المضادة للعلمانية الديمقراطية. «**كويليام**» منظمة علمانية، لكننا عبر التنويه بالتعددية التاريخية والمعاصرة في الاستدلال التفسيري، نستطيع تحدي التحجر في العقيدة العنيفة، الأصولية، أو المؤدلجة. كما أننا مؤسسة خيرية مسجلة في الولايات المتحدة، ونعتمد على المنح والتبرعات للاستمرار. وبمعونة فقهاء مسلمين مثل د. حسن، فإنا نستهدف التحديين المذكورين أعلاه للإسلاموية والعقيدة الدينية مفرطة التحفظ، ونروّج حقوق الإنسان والثقافة الديمقراطية كإطار تفسيري. وبذلك فإنا نزعج المسلمين المحافظين أحيانا، الذين كانوا حلفاء لنا ضد الإسلاميين. ولو لم نتناول مشكلات حقوق الإنسان، فلربما ظلوا معنا. لكننا لا نستطيع التزام الصمت حول حقوق الجنسين والحريات الشخصية. الأمر صعب للغاية، لكننا ملزمون بتقريب بعض منهم إلى الحوار الإصلاحي، وكذلك بمحاولة التخاطب مع الذين يتموضعون في الطرف الآخر من الطيف، الذين أصبحوا مناهضين بضراوة للإسلام.

إن عقدي لهذا الحوار معك بحد ذاته قد يثير قلقا بين بعض المسلمين المحافظين وكذلك القبليين (رغم عدم تدينهم). فمع أني أنظر لمحادثتنا هذه كأفضل مثال على الكيفية التي يمكن من خلالها للضباب أن يتبدد لو تركنا المبالغات جانبا ونأينا عن التطاول، فسينظرُ آخرون إليها كصداقة مع العدو – والعدو هنا هو أنت. إن مبادئي تسمح لي بعقد هذا الحوار معك، رغم آرائك حول الإسلام ودوره السلبي في عالم اليوم، مثلما تسمح لي بعقد حوار مع أفراد من الإخوان المسلمين، الذي يرفعون شعار «الإسلام هو الحل» لعالم اليوم. وفي كلا الحالين، فإن هدفي هو الترويج لقيمي النابعة من العلمانية، الديمقراطية، وحقوق الإنسان. في الواقع، فأنا أتبادل الآراء بانتظام مع إسلاميين وجهاديين ملتزمين في محاولة لثنيهم عن عقيدتهم الإيديولوجية؛ لأن ذلك هو دوري. لكني أشك في أنّ حديثي معك

يُعدّ بالنسبة للعديد من المسلمين المحافظين وكذلك القبليين (رغم عدم تدينهم) أشد إشكالا من حديثي مع الجهاديين. وذلك يوضح عمق المشكلة التي نتصدى لها اليوم.

هاريس: نعم، يوضحه حقا.

نواز: أما حين أتحدث عن حجم هذه الدوائر المتنوعة التي صنفناها تواً، فمن المهم جدا أن تعرف أني أشير إليها في سياق عالمي. لكن أمريكا بالخصوص قد تكون مختلفة. فمثلا، أعتقد أن المسلمين يميلون للاندماج في أمريكا أفضل من بريطانيا. لا أرغب أن يظن قراؤنا أن الأغلبية الساحقة من المسلمين الأميركيين محافظون بالضرورة، فهناك خط إصلاحي قوي ضمن الخطاب الإسلامي في أميريكا، ولعل معظم المسلمين الأميركيين يدعمونه.

مجموعة أخرى أصغر هي من أسميهم «مواطنين يصادف أنهم مسلمون». والفرق بينهم وبين المسلمين الإصلاحيين هي أن العديد من الناس لا يعتبرون أنفسهم مسلمين أولاً حين يتفاعلون مع المجتمع. بل يصادف أن الإسلام أحد هوياتهم الثقافية، لكنه ليس بالهوية المتصدرة. إنني أتجنب عمدا استخدام لفظ «مسلم علماني» هنا، لأن المسلمين المحافظين والإصلاحيين بالطبع قد يكونون علمانيين أيضا.

هاريس: في الواقع، فإنك تستخدم تعريفا أدق لكلمة «علماني» مما هو معتاد في هذا السياق. لإيضاح الأمر لقرائنا: فالعلمانية مجرد التزام بعدم تدخل الدين في السياسة والإدارة العامة. فدينك أمر يخصك، وديني (أو عدمه) أمر يخصني. إن الاستعداد لبناء جدار الفصل بين الكنيسة والدولة هو ما يعرّف العلمانية، ولكن كما تشير أنت، فوراء هذا الحائط قد يكون المرء مهووسا دينيا بالكامل، ما دام لا يحاول فرض ثمار هوسه على الآخرين.

نواز: بالفعل، وقد يرفض المتدينون العلمانيون مع ذلك خطاب حقوق الإنسان إلى حد ما، وهي حالة لا ترضيني حقا. إن ما أؤمله ليس أن يصل الناس للعلمانية فحسب، بل إلى قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان أيضا. وهكذا فإن المهمة التي أمامنا هائلة، لكنّ العلمانية شرط أساسيّ لها. وذلك تحدٍّ فريد للمسلمين اليوم، نظرا لصعود الإسلاموية والجهادية، وكذلك للسياق الأوربي الذي تؤطر العلمانية ضمنه. لكن هذا التحدي ليس منيعا.

مثاليا، كنت سأفضل أن يكون كل المسلمين إما إصلاحيين أو مواطنين يصادف أنهم مسلمون. لكنك لن تسمع من هذه الأخيرة. فلن يأتوا إليك كي يقولوا «مرحباً سام، أنا لا أؤمن بكل ذلك وأنا مسلم»، لأنهم لا يتفاعلون مع المجتمع بصفتهم مسلمين. فهم محامون، وأطباء، ومستخدمون، ومنظفون، وسائقون. ولو أصبح كل هؤلاء «مواطنين»

فحسب وتفاعلوا مع البنى السياسية بواسطة ممثليهم المنتخبين، فسيحلّ ذلك معظم المشكلة.

وأخيرا، إليك بعض الملاحظات على لفظة «مسلم معتدل». فبعد مجيء الدولة الإسلامية، حتى القاعدة ستبدو «معتدلة». وهذه اللفظة نسبية للغاية – لو وضعناها إلى جانب بشاعات متصاعدة في الوحشية – لدرجة تفقد معها معناها. فهي لا تخبرنا عن أي قيم يحملها المرء. ولهذا أفضل استخدام ألفاظ تشير إلى القيم، مثل مسلم «إسلاموي»، «ليبرالي»، أو «محافظ».

هاريس: إن حدسك عن الأحجام النسبية لهذه الجماعات يجاري حدسي دون شك. وكما قلت، فلدينا قدر كاف من نتائج الاستبيانات حول مسألة ما يؤمن به المسلمون. وأود معرفة ما تراه في تلك النتائج. على نحو خاص، كشفت نتائج الاستبيانات التي أجريت في بريطانيا بعيد تفجيرات 7/7 في لندن أن أكثر من 20% من المسلمين البريطانيين شعروا بالتعاطف مع دوافع الانتحاريين، 30% رغبوا في العيش في ظل الشريعة، 45% اعتقدوا بأن 9/11 كانت نتيجة مؤامرة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، و 68% اعتقدوا بأن المواطنين البريطانيين الذين «يسيئون للإسلام» يجب أن يعتقلوا ويحاكموا.[9]

إن معرفة أن 78% من المسلمين البريطانيين يعتقدون أن أي شخص نشر رسوم الكرتون الدنماركية يجب أن يعاقب – ومؤكد أن قدرا معتبرا منهم يطالب بقتلهم – أمر مقلق للغاية. هل لك أن تقول بضع كلمات حول هذا الموقف بعينه في بريطانيا؟

نواز: نعم، نتائج الاستبيانات هذه مقلقة بالفعل، مع الانتباه إلى أن «العيش تحت الشريعة» قد يعني أشياء مختلفة لمشاركين مختلفين. إننا في «كويليام» نقيم في لندن، ونقول ذلك صراحة، رغم أن ذلك لا يكسبنا رواجا بين العديد من أبناء ديني: فبالمقارنة مع أميركا، تعاني بريطانيا من مشكلة أضخم من المتوقع مع التطرف الإسلامي، وكذلك أوربا. يشير استطلاع أحدث إلى أن 27% من مسلمي بريطانيا قالوا إنهم شعروا ببعض التعاطف مع الدوافع وراء هجمات شارلي إيبدو في باريس. وشعر 11% بالتعاطف مع الذين يرغبون في القتال ضد «المصالح الغربية».[10] ورغم أن هذا الاستطلاع يؤكد أن الأكثرية تكنّ تعاطفا أقل مع العنف، فإنّ هذين الرقمين يظلان عاليين بشكل خطر في سياق غادر فيه قرابة 1.000 مسلم بريطاني للقتال في الدولة الإسلامية.

9 http://www.cbsnews.com/news/many-british-muslims-put-islam-first/.

10 http://www.bbc.co.uk/news/uk-31293196.

هاريس: هل تقول بأن بريطانيا هي الدولة الأصعب في أوربا في هذا الصدد؟

نواز: رغم أن بلجيكا تملك أعلى نسبة من المواطنين الذين ذهبوا مؤخرا إلى العراق وسوريا للانضمام إلى الدولة الإسلامية، فإنّ الدراسات تُظهر أن الـ500 أو 1.000 شخص الذين غادروا بريطانيا يحملون مستويات تعليمية أعلى، وقد يكونون أشد تطرفا من أقرانهم الأوربيين.[11] وأعداد كهذه تشير إلى أقلية كبيرة بنحو مزعج لا يمكن أن تنشأ من الفراغ. في الواقع، يكشف أحد أخطر الاستبيانات الذي نشرته مؤخرا **التايمز** اللندنية أن واحدا من كل سبعة شباب بريطانيين يكنّ «مشاعر دافئة» تجاه الدولة الإسلامية.[12] وبغض النظر عن مدى دقة ذلك، فهو يشير إلى مستوى من التعاطف الجماهيري لا يمكن التغاضي عنه. إن تيارا إيديولوجيا خفيا ضمن المجتمعات يغذي هذه الأعداد. وقد أصبحت بريطانيا مُصَدِّرا صافيا للإسلاموية والجهادية. حتى إن جماعتي الإسلاموية السابقة لم تنشأ في باكستان حتى صدّرناها إليها من بريطانيا.

إذن فلدينا مشكلة جادة في المملكة المتحدة وفي أرجاء أوربا، وأنا لا أقدم أي أعذار لذلك. فقد أسسنا «كويليام» للتصدي لهذا التحدي مباشرة. فنحن نحاول أساسا عزل الجهاديين عن سائر الناس، ثم تحدي الإسلاميين وتمييزهم عن المحافظين وسائر المجتمعات الإسلامية. ونحن نشجع المسلمين على رؤية الإسلاموية السياسية على حقيقتها: كإيديولوجيا حديثة ظهرت أولا مع الإخوان المسلمين. كما نخاطب المجتمعات الإسلامية في المملكة المتحدة حول الحاجة الأوسع إلى تبنٍّ مخلصٍ لإصلاحات ديمقراطية وحقوقية. وذلك تحدٍّ ضخم في أوربا، ناهيك عن سائر أرجاء العالم. ولذا فنحن أحوج ما نكون للمساعدة.

11 T. Coghlan, "British jihadists wealthier and better educated than those from rest of Europe," The Times, October 2, 2014.

12 O. Moody, "One in seven young Britons has sympathy with Isis cause," The Times, October 30, 2014.

قوة الإيمان

هاريس: لنعد إلى قصتك الشخصية قليلا، فإسلامويتك تبدو سياسية في الأساس، نابعة من بعض التظلمات المشروعة – على رأسها الظلم العرقي – التي بدأت تنظر إليها عبر عدسة الإسلام. لكنك لم تقل، كما يفعل أعضاء القاعدة، أنّ رؤية أحذية الكفار وهي تدنّس أرض الحرمين في جزيرة العرب قد استثارتك. فإلى أي حد حفزتك المعتقدات **الدينية** – كالرغبة في الشهادة مثلا – أنت ورفاقك الإسلاميين؟ ولو لم تكن أفكار كهذه مؤثرة، فهل لك أن تناقش الفرق الديني بين النظرة الإسلاموية الثورية والنظرة الجهادية؟

نواز: نعم بالطبع. هناك بالفعل تشابهات وفروق بين الإسلاموية والجهادية. ولا يجب أن يفاجئنا ذلك – فذلك أيضا ينطبق على نظرتنا إلى الشيوعية مثلا. فالاشتراكيون من جهة، والشيوعيون من أخرى؛ بعضهم مقاتل، وبعضهم مسالم. والأمر سِيّان مع الإسلاموية.

لقد قلت بأن حافز الإسلاميين والجهاديين **أيضا** هو العقيدة الإيديولوجية، التي تغذّوا بها على يد مجندين آسرين يتلاعبون بمظالم مدركة وأزمة هوية. في الواقع، فأنا أعتقد بوجود أربعة عناصر في كل أشكال التجنيد الإيديولوجي: سردية مظالم، واقعية أو مدركة، وأزمة هوية، ومجند آسر، وعقيدة إيديولوجية. و «سردية» العقيدة تتمثل بدعايتها.

والفرق بين حزب التحرير والقاعدة شبيه بالخلاف ضمن الشيوعية عمّا إذا كان التغير يأتي من العمل المباشر والصراع.

فلو أخذت نظرية المادية الجدلية في الشيوعية – وخاصة مسألة إن كان علينا أن نبتعد ونترك مسار التاريخ يشق طريقه، أو أن نتدخل للتأثير فيه – فإن أنصار النقاء في تلك النظرية سيقولون بأنه ليس عليك فعل أي شيء، فوسائل الإنتاج ستنزاح بشكل طبيعي من البرجوازية إلى العمال، وأي تدخل سيكون عقيما لأن التاريخ يجري بهذا النحو. وسيقول آخرون بأن علينا القيام بالعمل المباشر.

إن فروقا كهذه على الصعيد النظري توجد أيضا بين الإسلاميين ذوي الوجهة السياسية (أو «الاندساسية»)، وذوي الوجهة الثورية، والجهاديين. يؤمن الجهاديون طبعا بالتصدي للعمل المباشر، وقد بنوا نظرية كاملة حول ذلك. بل يحق لي القول بأن صعود ما يعرف «بالدولة الإسلامية» تحت قيادة أبي بكر البغدادي يدعم نسبيا استراتيجية أسامة بن لادن، واعتقاده القائل أن جعل الغرب يخشى التدخل العسكري سيقود لفراغ سلطة في الشرق الأوسط، وأن الغرب سيتخلى عن دعمه للمستبدين العرب، مما سيقود لتحطم

الأنظمة المستبدة، ومن هذا الحطام ستبزغ دولة إسلامية. لقد قال ابن لادن ذلك قبل أحد عشر عاما، ومن المذهل جدا أن نرى ما آلت إليه الانتفاضات العربية الآن.

هاريس: ما أحاول أن أرمي إليه هو التمييز الديني الذي **أظن** أني أرصده بين الإسلامي الذي كنتَ عليه – لكونك ضحية لتحيزات عنيفة في المملكة المتحدة، وتحولك لراديكالي سياسي بفضل الإسلام – وشخص ربما مرّ أو لم يمرّ بمظالم مماثلة، لكنه قرر أن ينضم للقتال إلى جماعة كالدولة الإسلامية، لأنه يعتقد بصدق بأنه يشارك في حرب كونية بين الخير والشر، وهو إما سينشر الدين الواحد الحق إلى أطراف الأرض، أو سيستشهد خلال ذلك. فهل كنت تفكر في احتمال استشهادك أنت، أم لعل إسلامويتك كانت مسألة سياسة ومظالم معتادة؟

نواز: أفترض أني أحاول قول إنه رغم وجود فرق من حيث المنهجية، فكل الإسلاميين يعتقدون بأنهم يشاركون في صراع كوني، لكن الصراع الكوني ليس السبب **الوحيد** لقيامهم ذلك.

هاريس: ربما أقيم هنا وزنا غير مستحق لنقاد آرائي في هذا الشأن، ولكن دعني أرجع للوراء مرة أخرى. سأتخيل (كما يؤكد الكثير من الناس) أن نسبة معتبرة ما من الإسلاميين المخلصين جدا سياسيون **صرف**، بمعنى أنهم مدفوعون بهموم دنيوية، لكنهم يستخدمون الإسلام كراية يروجون تحتها لقضيتهم. ألا يوجد إسلاميون **لا يؤمنون** بماورائيات الشهادة؟

نواز: سنقول ببساطة أنهم غير مخلصين. فغير المخلصين حاضرون في أي حركة وضمن أي إيديولوجيا. ولكن لو رغبنا في النظر لما يؤمن به الإسلاميون، فعلينا بوضوح أن نستثني الأقلية المكيافيلية التي انضمت للأمر لأنها ترغب في الخروج منه بنفع.

لكنك لو تأملت المخلصين – وقد كنت مخلصا لما آمنت به سابقا – ستجد أنهم مستعدون للشهادة. فقد كان عليّ أن أواجه المعذِّبين في مصر وكنت أظن أني سأموت لأجل قضيتي. وبهذا المعنى، فكل الإسلاميين المخلصين يعتقدون بأنهم يشاركون في صراع كوني بين الخير والشر، ويعرّفون «الخير» كنضال مقدس. ولكن من جديد، وللتأكيد، فهذا ليس الشيء **الوحيد** الذي يؤمنون به.

ومع أنهم يؤمنون يقينا بالشهادة، فهم يؤمنون أيضا «بشرور» الإمبريالية الغربية، كما يؤمنون أيضا بأنهم يعيشون تحت وطأة المستبدين العرب. وسردية المظالم تدخل هنا، كما قلت، قبيل نقطة التجنيد. ولكنها تتجمد من بعد نقطة التجنيد على هيئة يقين

إيديولوجي، يصبح هو الوسيلة التي يعبرون بها عن أنفسهم. ولذا فليس الخيار إما هذا أو ذاك. لكن الصراع الكوني بالتأكيد عنصر ثابت لدى الإسلاميين أجمع.

فرق آخر بين الجهاديين والإسلاميين هو أن الإسلاميين يسعون للشهادة وفقا لنظريتهم، وهكذا فقد تعلمنا في حزب التحرير أن الشهادة تتحقق حين تُقتل وأنت تعاقب حاكما مستبدا أو تنشر الإيديولوجيا. تعلمنا أن النظام حين يقتلك وأنت تحاول تجنيد ضباط في الجيش، فأنت شهيد، وعليك القبول بذلك. لكننا تعلمنا أيضا أنك لست شهيدا لو فجرت نفسك في سوق، لأنك بذلك تقتل مدنيين ومسلمين آخرين.

وهكذا ففي حين كان حزب التحرير يحاول إثارة انقلابات على يد الجيش القائم، قال الجهاديون ببساطة: «لمَ لا نخلق جيشنا الخاص وحسب؟ لماذا نضيع وقتنا مع هؤلاء، وهم كفار على أي حال؟» فعند الجهاديين يعدّ الموت خلال القتال من أجل جيشهم شهادة. هذا هو الفرق: ما دمت ستموت وفقا للرؤية التي تعتنقها، فأنت شهيد في نظر جماعتك.

هاريس: إذن فأنت لا تميز بين الجهاديين وسائر الإسلاميين من حيث **درجة** القناعة الدينية —كما في مستوى يقينهم بوجود الآخرة أو حقيقة الشهادة؟ أم أن الفرق مسألة منهج فحسب؟

نواز: نعم. بعض الجهاديين ليسوا «أتقياء» بمعنى امتلاكهم قناعات دينية واثقة. لكنهم ببساطة يفضلون العنف، العمل المباشر، ولذا تجذبهم تلك الجماعات. ولكن بعض الإسلاميين شديدو التقوى ومؤمنون بصدق بقداسة قضيتهم **السياسية**. ولذا فإن التقوى أو عدمها، والإخلاص الديني وعدمه، يتراوحان ضمن الجماعات وفيما بينها.

هاريس: ذلك كله مدهش، ومفيد جدا حين تفصّله. لكن علينا أن نوضح هنا نقطة أخرى، لأن الحد الفاصل بين التقوى وعدمها قد لا يكون جليّا بالنحو الذي يتوقعه عامة قرائنا. فكثيرا ما يقال مثلا أن خاطفي 9/11 لا يمكن أن يكونوا مؤمنين خلّصا، لأنهم ارتادوا نوادي تعرٍ قبل تنفيذهم مهمتهم الانتحارية. ولكن من وجهة نظري فلا شك مطلقا في أن هؤلاء الناس اعتقدوا بأنهم ذاهبون إلى الجنة. وأظن أن العديد من الناس غير مدركين للترابط بين الالتزام الظاهري والاعتقاد.

نواز: ذلك صحيح.

هاريس: لم يكن خاطفو 9/11 بعض المكتئبين الانتحاريين الذين ذهبوا إلى نوادي تعرٍ، ثم قرروا قتل أنفسهم بالإضافة لآلاف الغرباء الأبرياء. وسواء ذهبوا أم لم يذهبوا إلى نوادي تعرٍ، أو **بدوا** أتقياء بأي نحو آخر، فقد كان هؤلاء مؤمنين صادقين.

نواز: نعم. قضية نوادي التعري مجرد تمويه، لأنه حتى في الرؤية التقليدية للجهاد، فحين تعتقد أنك تقوم بعمل حربي، يجوز لك خداع العدو. وسواء تمثل ذلك بالتجسس، أو التخفي، أو الدعاية الحربية، فهو ضمن التفكير التقليدي — كما أحيته الجهادية الحديثة — جائز خلال الحرب.

ولكنّ رؤية خاطفي 9/11 في نوادي التعري أمر مهم حين يستخدم كدعاية ضدهم. فمعظم مسلمي الغرب المحافظين (الذين لا يعتقدون بأنهم في حرب ضد بلدانهم) سيجدون سلوكيات كهذه ضد الدين. لكنك محق تماما في قولك أنها لا تدل على قناعات الخاطفين الدينية أو عدمها. وهذا الخلط بين تدين الجهادي المفترض والجنس يجب أن يتضح الآن، بعدما شهدنا استعباد واغتصاب بوكو حرام والدولة الإسلامية لجموع النساء.

ليس من الدقيق ضرورةً أن نفترض أن قادة الإخوان المسلمين مثلا أقل تقوى بنحو ما من قادة الدولة الإسلامية مثلا. فمزيد من العنف لا يكافئ بالضرورة مزيدا من الإخلاص الديني. كل جماعة مقتنعة بعمق بتوجهها لتحقيق الإسلاموية في المجتمع، وكل منها تواجه أخطارا كبيرة خلال سعيها لهذا الهدف، لكنها تختلف في المنهج، ولهذا يبغض بعضها بعضا بشدة، مثلما حصل بين تروتسكي وستالين في النهاية. لم يعنِ ذلك أن أحدهما أقل شيوعية من الآخر؛ ولكنّ نزاعا انشقاقيا حدث ضمن عقيدتهما. يسيء البعض فهم هذه النزاعات ضمن الإسلاموية، فيقولون: «ماذا تعني بالإسلاموية؟ لا يوجد شيء كهذا». الإخوان المسلمون يكرهون جماعات كالدولة الإسلامية، وقد تقتل الدولة الإسلامية أفرادا من الإخوان المسلمين. لكني أذكرهم دوما بأن ذلك أشبه بإنكار وجود الشيوعية فقط لأن ستالين يروى أنه أمر بقتل تروتسكي، فذلك استنتاج عبثي. بالطبع يوجد ما يعرف بالشيوعية، ويوجد ما يعرف بالإسلاموية. فهي إيديولوجيا، والناس يسعون لتحقيقها، لكنهم يختلفون في الوجهة.

إن درجات الاقتناع الديني ليست ما سيساعدنا في فهم الفروق بين الجهاديين، الإسلاميين الثوريين، والإسلاميين السياسيين، والمسلمين غير الإسلاميين. لنأخذ سيد قطب مثلا. كان قطب عضوا في الإخوان المسلمين، وهو اليوم معروف كأحد الآباء المؤسسين للنظرية التي استحالت في النهاية للجهادية الحديثة. لقد أعدمه النظام المصري لتأليفه كتابا كتبه وهو مسجون في نفس السجن الذي احتجزتُ فيه بعد أعوام عديدة.

يتطلب الأمر درجة عالية من الإخلاص الديني لأن تموت لمجرد تأليفك كتابا، وكان ذلك في نظر الجماعة مثالا للشهادة. وبالمثل، فأعضاء حزب التحرير يمجّدون موت أعضائهم على يد النظام، لا موتَ الانتحاريين. فهم يعدّون أعضاءهم للقتل في محاولة للإطاحة بالنظام، ويخبرونهم نفس القصص عن الشهادة والنعيم الأبدي في الفردوس التي يقصها الجهاديون.

هاريس: الاستنتاج الوحيد الذي أخرج به من كل ما قلته، هو أن مشكلة الإيديولوجيا أسوأ بكثير مما يفترضه معظم الناس.

نواز: قطعاً. ولكن للتأكيد، فالإيديولوجيا عامل واحد من أصل أربعة، لكنها الأشد إهمالا بينها.

هاريس: قد أتفق عموما، مع أنه يبدو بالتأكيد أن هناك حالات عديدة لا يملك فيها الناس أي مظالم مفهومة غير عقائدية، ويصبحون «راديكاليين» بفضل فكرة التضحية بكل شيء من أجل إيمانهم. وأنا هنا أفكر في الغربيين الذين انضموا لجماعات كالقاعدة والدولة الإسلامية مثلا. فالإيديولوجيا الدينية تبدو أحيانا غير ضرورية فحسب، بل **كافية** لتحفيز شخص ما كي يفعل ذلك. يحق لك القول بأن لأزمة الهوية دورًا أيضا، لكنّ كل شخص يمر بأزمة هوية في لحظة ما. في الواقع، للمرء أن يقول بأن الحياة بأسرها أزمة هوية طويلة. والواقع أن بعض الناس يبدون مدفوعين بشكل شبه كلي بمعتقداتهم الدينية. وبغياب تلك المعتقدات، لن يكون لسلوكهم أي معنى واضح، أما معها، فيصبح سلوكهم مفهوما تماما بل عقلانيا.

كما تعلم، فإن الحوار العام حول الصلة بين الإيديولوجيا الإسلامية وتعصب المسلمين والعنف قد عرقله الصواب السياسي. ففي الغرب، هناك قطاع كامل دوره الدفاع والتضليل، صمم – كما يبدو – لحماية المسلمين من مصارعة أمثال هذه الحقائق التي تحدثنا عنها. فأقسام الإنسانيات والعلوم الاجتماعية في كل جامعة تطفح بالباحثين وأشباه الباحثين – المفترض أنهم خبراء في الإرهاب، والدين، والفقه الإسلامي، وعلم الإناسة، والعلوم السياسية، وسائر المجالات – الذين يدّعون أن التطرف الإسلامي ليس كما يبدو عليه أبدا. فهؤلاء الخبراء يصرون على أننا لا نستطيع أخذ الإسلاميين والجهاديين على قدر كلامهم، ولا شيء من تصريحاتهم حول الله، والجنة، والشهادة، وشرور الردة يملك أي صلة بدوافعهم الواقعية.

حين يتساءل المرء عن دوافع الإسلاميين والجهاديين الحقة، فسيجابه بتسونامي من الأوهام الليبرالية. فمن نافلة القول أن الغرب ملوم على كل الدمار الذي نراه في المجتمعات

الإسلامية. كيف سنشعر **نحن**، على أي حال، لو أن القوى الأجنبية ورسامي خرائطها قسّموا أرضنا وسرقوا نفطنا؟ هذه الشعوب المعذبة لا تريد إلا ما يريده جميعنا من الحياة. فهم يريدون أمانا اقتصاديا وسياسيا، ويريدون مدارس جيدة لأطفالهم، ويريدون أن يكونوا أحرارا في الازدهار بسبل متوافقة تماما مع مجتمع مدني دولي. يتخيل الليبراليون أن الجهاديين والإسلاميين يتصرفون مثلما سيتصرف أي شخص آخر ذي تاريخ مماثل من التصادمات التعسة مع الغرب. ويتجاهلون كليا دور المعتقدات الدينية في إلهام جماعة كالدولة الإسلامية – إلى درجة يستحيل معها للجهادي أن يثبت أنه يفعل **أي شيء** لأسباب دينية.

يبدو أنه لا يكفي الشخص المتعلم ذا السعة الاقتصادية أن يكرس نفسه لأشد نسخ الإسلام تطرفا وزهدا، ويفصّل أسبابه الدينية لفعل ذلك حتى الملل، بل ويصل إلى درجة الاعتراف بيقينه في الشهادة بالفيديو قبل تفجيره لنفسه في جمع مكتظ. فهذه الإثباتات للتشدد الديني تعد، بنحو ما، غير كافية خطابيا لإثبات أنه كان مؤمنا بحق بما آمن به. بالطبع، فلو قال هذه الأشياء لأنه كان مليئا باليأس ولم يشعر إلا بالمقت تجاه البشرية، أو لأنه كان عازما على التضحية بنفسه لتحرير أمته من الطغيان، فإن دافعا نفسيا أو سياسيا كهذا سيتقبّل على عواهنه. وهذا المعيار المزدوج يضمن تبرئة الدين في كل حين، فاللعبة منحازة.

لا أعلم إن كنت على معرفة بنفس الدفاعيين الليبراليين الذين أعرف. فبعضهم صحفيون، وبعضهم أكاديميون، وقليل منهم مسلمون – لكنّ الصورة العامة هي شخص أبيض ليبرالي غير مسلم، يساوي أي انتقاد لعقائد الإسلام بالتعصب، «الإسلاموفوبيا»، أو حتى «العنصرية». هؤلاء أناس مرموقون جدا في الولايات المتحدة، ونفوذهم محرج فكريا بقدر ما هو معضل أخلاقيا. ورغم أنهم لا يطلقون نفس الأصوات على كل سؤال، فهم ينفون أي صلة بين المعتقدات الدينية الصادقة والعنف الإسلامي. يمكن الآن التعويل على صحف ومواقع بأكملها كي تعمل كأبواق للدفاع عن الإسلاميين – **كالغارديان، وصالون، وذا نيشن، وألترنت**، وغيرها. وقد جعل ذلك من الصعب جدا عقد محاورات علنية من النوع الذي نجريه الآن.

خيانة الليبرالية

نواز: نعم، لدينا نقاشات كهذه في المملكة المتحدة أيضا. كل ما سأقوله من الآن فصاعدا أقوله بصفتي ليبرالياً، بل إني في الواقع مرشح نيابي للحزب الليبرالي الديمقراطي في لندن. ثمة خيانة ليبرالية كبرى في الأفق. وللأسف، فإن العديد من «رفاق درب» الإسلاموية يقفون في الجانب الليبرالي من هذا النقاش. وأسميهم «**باليسار القهقري**»، بل إنهم في الواقع عنصريون بالمقلوب. فلديهم شحّ في التوقعات تجاه الأقليات، حيث يرونها متجانسة ومعارضة بطبعها لقيم حقوق الإنسان. وهم اختزاليون ثقافيا في طريقة رؤيتهم للثقافة «الشرقية» – والإسلامية في حالتي، وجبريون ثقافيا في محاولتهم تجميد مثالهم عنها كي يشبعوا شغفهم الشرقي الخاص. ففي حين يمحّصون، محقّين، كل جانب من ثقافتهم الغربية «الخاصة» باسم التقدم، فإنّهم يعاقبون المسلمين الليبراليين الذين يحاولون فعل ذلك ضمن الإسلام، ويختارون بدل ذلك الاصطفاف مع كل نكوصي وقهقري باسم «الأصالة الثقافية» ومعاداة الاستعمار.

يدّعون أن سبب رفضهم انتقاد أي سياسة، محلية كانت أو خارجية – سوى سياسات من يعتبرونها «حكومتهم» – هو أنهم غير مسؤولين عن أفعال الحكومات الأخرى. لكنهم يثورون ما أن ترتكب **أي** حكومة ليبرالية ديمقراطية (وليس **حكومتهم** بالضرورة) خطئا سياسيا، ويتجاهلون عموما معظم الأنظمة والجماعات الفاشية، الثيوقراطية، أو الاستبدادية المسلمة في العالم. وكأنّ الأمر أن أدمغتهم لا تستطيع الاحتفاظ بفكرتين في نفس الوقت. وبالإضافة، فمتى كانت هذه الانعزالية صفة لليبراليين الدولانيين؟ إنها من صفات اليمين.

إنهم يخضعون ما يعتبرونها مجتمعات «أصيلة» – وأستخدم هذه الكلمة عن قصد – لمعايير أوطأ من تلك التي يدعون انطباقها على جميع «شعبهم»، الذين يصادف أن يكونوا من البيض أساسا، وهذا ما أدعوه **بالعنصرية المقلوبة**. فعبر إخضاع المجتمعات «الأصيلة» لمعايير أوطأ – أو أشد «أصالة» ثقافيا – فهم يسلبون السلطة من تلك المجتمعات تلقائيا، ويعيقون طموحاتها. وبذلك يفصلونها عن النظام كليا، لأنه لن يبقى لها أي طموح. وينتهي الحال بهذه المجتمعات في «مناطق إسلامية» معزولة ذاتيا، لا يطمح فيها أفرادها إلا لأن يصبحوا كبراء في المجتمع المحلي، مثل زعماء الغيتو. و «رفاق الدرب» يمجدون هذه الغيتوهات «المسلمة» باسم «الأصالة الثقافية» وسياسات الهوية، وكثيرا ما يكون زعماء الغيتو أعوانا لهم. لا تؤول سياسات الهوية والبحث شبه الليبرالي عن الأصالة الثقافية إلا إلى دوامة هابطة من الادعاءات القروسطية المتنازعة، دينية كانت أو ثقافية،

ومعارك حول من هم المسلمون «الحقيقيون»، وتزايد مستمر لاضطهاد النساء، وعداء المثليين، والطائفية، والتطرف.

وذلك ليس ليبراليا، فضمن اليسار، يمثل هذا أثراً للتوجه الاشتراكي الذي يقدّم هوية الجماعة على الاستقلال الفردي. وضمن اليمين، يمثل هذا – بنحو ساخر – إحياء لتوجه «فرّق تسد» الاستعماري البريطاني. أما الليبرالية الكلاسيكية فتركز على الاستقلال الفردي. وأنا أشير هنا إلى الليبرالية كما نفهمها بالمعنى الفلسفي، وليس كما تُفهم في الولايات المتحدة كإشارة إلى الحزب الديمقراطي – فهذا استخدام حزبي لا أكثر. إن الخيانة الليبرالية الكبرى لهذا الجيل هو أنه تحت شعار الليبرالية، قدّمت الحقوق الجماعية على الاستقلال الفردي ضمن الأقليات. والأقليات الواقعة ضمن أقليات تعاني بشدة من هذه الخيانة. أشدّ من أقلق عليهم ونحن نجري هذه المحادثة هم المسلمات النسويات، والمسلمون المثليون، وتاركو الإسلام، وكل الأفراد المقموعين والمضطهدين الذين لا يوصمون فحسب، بل يعتدى عليهم بعنف في أحيان كثيرة أو يقتلون، فقط لكونهم **ضد التيار**.

ولذا فإني أبغض «رفاق الدرب» الذين يمسكون بأيدي الإسلاميين المتطرفين ويجارونهم على طول الطريق وصولا لغايات ضد-ليبرالية بالكامل، معتقدين بأنهم يسدون للمسلمين نفعا، لكنهم في الواقع يسلّمون كل المسلمين الراغبين في الإصلاح – إلى حتفهم في العديد من الأحيان – عبر التنازل بهدوء لتلك الأنظمة والمبادئ التي تصبو إلى قتلهم.

لكنّ هناك جانبا آخر لهذا، علينا أن نأخذ حذرنا منه. فلدينا مشكلة خطرة في أوربا أكثر مما في أمريكا، مع صعود اليمين. ففي اليونان مثلا نال حزب الفجر الذهبي النيو-نازي نفوذا سياسيا. وفي بريطانيا كانت لدينا مشاكلنا مع بعض حركات الشارع. فقد ساعدت تومي روبنسون على الخروج من رابطة الدفاع الإنجليزي (EDL) لأنه شهد اختراق النيو-نازيين لها، ولم يرغب في أن يكون له دخل في ذلك. وبعدما ترك EDL ظهرت منظمة جديدة أصغر، بدأ أعضاؤها بالإغارة على المساجد وتوزيع نسخ من الكتاب المقدس وهم يرتدون ملابس عسكرية مما أثار، كما قد تتخيل، كثيرا من التوتر في المجتمع المسلم. كما تواجه ألمانيا الشرقية مشكلات حادة مع النيو-نازية.

وهكذا فإضافة «لرفاق الدرب» هؤلاء – وقد فسرت لماذا أختلف معهم – لدينا هؤلاء المتعصبون. وهم في الجوهر، سواء كانوا إسلاميين أم ضد المسلمين، يتفقون على عدة أمور. أولها اعتقادهم بأن الإسلام نفسه – وليس الإسلاموية – إيديولوجيا استعلائية جاءت للسيطرة على العالم؛ والآخر هو أن المسلمين وغير المسلمين لا يمكنهم لذلك أبدا أن يعيشوا معا بمساواة وسلام، بل يجب أن ينفصلوا إلى كيانات معرّفة دينياً.

لك أن ترى بالطبع كيف يناسب ذلك الإسلاميين، لكنه أيضا يناسب «الفجر الذهبي» وسائر الجماعات التي يسعدها أن تطرد كل المسلمين من أوربا، حتى الذين ولدوا ونشؤوا هناك. فهاتان الجماعتان تتشاركان نفس الرؤية، التي تتجلى في إحداهما – بشكلها الأشد تطرفا – بصورة الإرهابي أندرس بريفيك، وفي الأخرى بالإرهابيين الجهاديين مرتكبي تفجيرات 7/7 في لندن. لم تفاجئني معرفة أن بريفيك اقتبس بكثرة من القاعدة في بيانه الإرهابي، فأحد هذين التطرفين يعارض «استيلاء المسلمين» والآخر يسانده، لكنهما سويا يعتنقان هذه الرؤية الانقسامية الطائفية الكارثية. ولمقاومة هذا التطرف، يتمثل تحدينا بفضح وتقويض «رفاق الدرب»، وهو ما أحاول فعله بانتظام، وكذلك مناهضة المتعصبين في الوقت نفسه.

هاريس: أتفق مع كل ما قلته تواً. لقد كتبت ذات يوم مقالة بعنوان «هل هي نهاية الليبرالية؟» لاحظت فيها كيف أن «رفاق الدرب» هؤلاء قد جعلوا من شبه المستحيل أمام هؤلاء الليبراليين التعدديين المخلصين أن يتحدثوا بصراحة حول هذا الشأن ما يسمح للفاشيين، والنازيين الجدد، وسائر متعصبي اليمين المتطرف وحدهم بفعل ذلك. ففي بعض الأحيان لا أحد يطلق ادعاءات دقيقة حول دوافع الإسلاميين والجهاديين غير متعصبين خطرين آخرين، وذلك أمر مرعب. فلدينا متطرفون يلعبون على جانبي الرقعة في صراع الحضارات، ولن يتحدث الليبراليون أبدا بعقلانية حول ما يجري.

نواز: حسنا، حيث إن الجزء الثاني الخاص بالمتعصبين ليس مثيرا للجدل فإنني أرغب في الحديث أكثر عن الجزء الخاص «برفاق الدرب»، ولماذا يعدون عنصريين بالمقلوب. لقد توصلوا لذلك انطلاقا من افتراض أن كل المسلمين يفكرون بنحو معين، ولذا فإن أي مسلم لا يفكر بنفس النحو لا يمكن أن يكون مسلما «فعليا» أو «أصيلا». ولكن هل ثمة شكل للتعصب يمكنك تبنيه أسوأ من فكرة أن الـ 1.6 مليار شخص في العالم الذين يدينون بدين معين، يجب أن يفكروا ويتصرفوا بالنحو ذاته؟ يبدو هذا توجها يمينيا، ولكن «رفاق الدرب»، أو اليسار القهقري، قد تبنوه. واسمح لي بالتفصيل.

لو كنت مسلما ليبراليا يتحدث كما أتحدث، ويتحدى الإسلاموية، فإن «رفاق الدرب» يعتقدون أنك لست مسلما محافظا صادقا. ومن ثم يروج «رفاق الدرب» لأصوات «حقيقية» كمحاورين مشروعين، لأنهم يبحثون عن «النقاء» و «الأصالة الثقافية» رغبةً منهم بدوافع استشراقية في إدامة هوية جماعية. ولذا فستبدأ بالطبع دوامة هابطة. إذ يصبح السؤال «حسنا، ما الذي يعنيه أن تكون مسلما؟» مما سينحلّ بسرعة إلى «حسنا، هذا مسلم أشد نقاء – لنستمع إليه إذن.»

إن توجها كهذا سيفضي حتما لتمكين الأصوليين بوصفهم الأشد أصالة، لأن من سيفوز بالطبع في لعبة «من هو المسلم الأشد نقاء؟» ويتغلب على الآخرين في سباق التقوى هو الأصولي اليقيني العنيد. وهكذا يخذل «رفاق الدرب» المسلمين الليبراليين والإصلاحيين. ودون إدراك منهم، سيتبنون أيضا دور شرطة الفكر، عبر التأكيد على أن الليبرالية ليست أصيلة لدى المسلمين. ومن جديد، فهنا يظهر التعصب المقلوب.

إني أرغب للمنضوين لما أسميه باليسار القهقري، ويقرأون هذا الكلام، أن يفهموا أن المرحلة الأولى في تمكين أي جماعة أقلية هي تحرير الأصوات الإصلاحية ضمنها، كي يستطيع أفرادها تحمل مسؤولية أنفسهم، ويتجاوزوا العقبة الأولى أمام التمكين الحقيقي: أي عقلية المضطَهَد. فهذا ما حققته حركة الحقوق المدنية الأميركية عبر تحويل طبيعة الحوار. فقد تحمل مارتن لوثر كينغ الابن وقادة آخرون المسؤولية عن مجتمعاتهم، وتصرفوا بنحو إيجابي وتمكيني، بدلا من رفع بطاقة الضحية دوما أو إثارة الشغب في الشوارع. أما إدامة عقلية الفكر الجمعي هذه فهي شديدة الخطورة، كما تفضي إلى الخذلان.

هاريس: نعم، ومن السخرية أن هؤلاء الليبراليين لا يرون كيف أنهم تركوا النساء، والمثليين، وأحرار الفكر، والمفكرين المعروفين، وسائر المهمّشين في العالم الإسلامي يسقطون في آتون من العنف والتعصب. فبدلا من دعم حقوق النساء والبنات في ألا يعشن كعبيدٍ مثلا، يدعم الليبراليون الغربيون حقوق الثيوقراطيين في معاملة أزواجهم وبناتهم بأي نحو أرادوا — مع تجنيبهم رؤية رسوم الكرتون المسيئة أيضا.

نواز: أما بالنسبة للرأي القائل بأنه هكذا قد يتصرف كل من عانى من الإمبريالية أو الاستعمار: كلا، ليس الأمر كذلك. فقد استعمرت بلدان بأكملها كالهند. لكن هناك فرقا بين ما يجري في العراق ومحاولة الدولة الإسلامية لإبادة اليزيدية، وما فعله غاندي في الهند. لنأخذ العراق كدراسة حالة ونفكر في الأمر: ما الذي يربط بين قتل الأقلية اليزيدية على جبل سنجار والسياسة الخارجية الأميركية؟ وما الذي يربط بين فرض ارتداء الحجاب (بل الخيم) على النساء في وزيرستان وأفغانستان، وجلدهن لو رفضن، وإجبار الرجال على إطلاق اللحى وإلا عوقبوا بالجلد، وقطع الأيدي وما شاكل، وبين السياسة الخارجية الأميركية؟

هاريس: إن قائمة التفاهات هذه يمكن توسعتها لما لا نهاية. فما الذي يربط بين تفجير السنة لمساجد الشيعة والأحمدية في باكستان، والسياسة الخارجية لأمريكا أو إسرائيل؟

نواز: لا شيء من هذا يعني عدم وجود مشاكل في السياسة الخارجية. لكنّ علينا جميعا أن نتعلم كجماعة، وكمجتمع، كيف نتحرى الدقة أكثر في هذا النقاش. لقد ذكرنا فيما مضى أربعة عوامل في التحول للراديكالية: سردية مظالم، واقعية كانت أو مدركة؛ أزمة هوية؛ مجندين آسرين؛ وعقيدة إيديولوجية.

حيثما وجدت مظلمة حقيقية، كالمأساة البوسنية، فهي تستحق التناول. وحيثما وجدت مظلمة مدركة، يجب التشجيع على تبديد هذا الشعور. فاستهداف المظالم الواقعية أو المدركة سيوقف تيار أبناء الخامسة عشرة اليافعين الغاضبين قبل أن يجندوا. يمكننا أن نقول: «حسنا، أرى أنك غاضب بسبب البوسنة – ولكن ألم تفكر في أن الأميركيين تدخلوا في النهاية وساعدوا على إيقاف الأزمة؟ ألا يستحقون بعض التقدير لذلك؟»

هاريس: ولكن بالنسبة للمظالم المدركة بإزاء الحقيقية، فالدين يلعب دورا غير مساعدٍ قطعا. فمثلا، ما الذي تقوله في حقيقة أن المجتمعات الإسلامية قامت باحتجاجات ضد إسرائيل أكثر مما قامت به ضد الدولة الإسلامية؟ والأنكى من ذلك أنه لو أحرق قسيس في فلوريدا نسخة من المصحف – أو حتى **هدد** بفعل ذلك – فسيحدث ذلك في عشرات المجتمعات الإسلامية غضبا أكبر من كل الفظائع التي يرتكبها السنة ضد الشيعة يوميا على الإطلاق.

نواز: نعم، إن صفة غريبة في تقديس رموز معينة وربطها بشكل وثيق بهوية المرء هي أنها كثيرا ما تصبح أهم من حياة الإنسان. فما من مظلمة، واقعية أو مدركة، ينظر إليها إلا عبر عدسة العقيدة. فلماذا مثلا لا يهتز الإسلامي لفاجعة يرتكبها مسلمون ضد غير مسلمين، ولكن غضبه سيثور حين يكون المسلمون السنة هم الضحية المدركة؟ لو كنا مهتمين حقا بحقوق الإنسان والظلم، فستهزنا كل جرائم حقوق الإنسان بالتساوي، وسنتصرف بشكل منتظم لمقاومتها بأفضل ما بوسعنا. ولذا سآخذ بالنقطة التي طرحتها، لكنيي سأضيف أن العقيدة تصبح عدسة تترشح من خلالها المظالم.

عامل آخر جدير بالذكر في هذه المرحلة، وهو ثاني تلك العوامل، وهو أزمة الهوية. فمن السهل جدا، حتى على المسلمين غير الإسلاميين، أن يصبحوا قبليين للغاية في تفسيرهم للمظالم المذكورة آنفا. وهكذا، فإضافة للعقيدة، تقود الهوية القبلية العديد من المسلمين للدفاع عن «أهلنا» فقط، لأن هذا هو المدى الذي تبلغه أي طاقة عاطفية لدينا. وكلتا العدستين اللتين تُفَسَّر المظالم من خلالهما – العقيدة أو القبلية – يجب أن تُستهدف وجها لوجه. وأنا أتحداهما معا، لأن المظالم ذاتها ستظل قائمة دوما، فهي طبيعة الحياة. لكن ما **يسعنا** تغييره هو العدسة الإيديولوجية، أو الطبيعة القبلية لهوية الإنسان،

أو ألعاب سياسات الهوية التي نميل لممارستها. أعتقد أن الانغماس في سياسات الهوية قد يكون خطرا، لأنه عادة ما يقود للانقسام، ولا يقود إلى تماسك الجماعات معاً.

هاريس: أتفق. لكن هذه القبلية إحدى تبعات الدين. هناك مصادر أخرى للقبلية — كالقومية والعنصرية مثلا — لكنّ الهوية الدينية المشتركة ذات آفاق عالمية. وكما قلت، فهي تخلق ولاء ضمن الجماعة وعداء لمن هم خارجها، حتى لو تصرف أفراد الجماعة بطرق بشعة. كثيرا ما ينحاز المسلمون لقضية مسلمين آخرين مهما أساؤوا التصرف، فقط لأنهم مسلمون. تقوم جماعات أخرى بذلك أيضا، لكن ذلك يمثل مشكلة بالخصوص للمسلمين في القرن الحادي والعشرين.

طبيعة الإسلام

هاريس: لقد استخدمت لفظ «أصولي» فيما مضى، وأنا أرغب في توضيح نقطة أخرى قد تثير تشوشا في أذهان قرائنا. في الإنجليزية، ورثنا لفظ «أصولي» من تيار محدد من المسيحية الأميركية. وهو في هذا السياق يعني شخصا يعتقد بالمصدر الإلهي والعصمة للكتاب المقدس. ولكن حين نستخدم هذا اللفظ مع الإسلام، فقد نقود الناس للاعتقاد بأن **عامة** المسلمين لا يعتبرون القرآن كلاما حرفيا لخالق الكون. وأريد سؤالك عن هذا، لأني أفهم أن كل المسلمين «المعتدلين» — حتى الذين لا يشبهون الإسلاميين أبدا، بل وغير المحافظين بنحو خاص في مواقفهم الاجتماعية — هم مع ذلك أصوليون بالمعنى المسيحي، لأنهم يؤمنون بأن القرآن كلمة الله الحرفية المعصومة.

نواز: أعتقد بأن علينا تجنب الوقوع في خطأين في توجهنا لهذه المحادثة. الأول هو أخذ لقطة من حال الإسلام والمسلمين اليوم وافتراض أن الأمور هكذا كانت وستكون دوما. والثاني هو التركيز صراحة على ما نظن أن النص يقوله، بدلا من المنهج الذي نتناول النص من خلاله، لأني أقول بأنه ما من توجه إلى النص يخلو من منهج حتى ما تسميه أنت بالنصّية وأسميه أنا «بالنصّية الفارغة». (في الواقع، ففي بعض الحالات، التي سنتناول بعضها، قد يقود تفسير نصّي صرف إلى نتيجة ليبرالية مفاجئة) شخصيا أرى الفراغية بحد ذاتها منهجا لتناول النص. وأستخدم كلمة «فراغية» لأن الإصرار على تجاهل التناقضات الظاهرية لا ينسجم مع الصياغة **النصّية**. فحين تختار فقرة ما من أي نص، ثم أثبت لك أنها تبدو مناقضة لفقرة أخرى، فإن الإصرار على الارتياح لهذه التناقضات والتأييد العملي لكلا الموقفين في آن واحد يعد منهجا. قد لا يبدو معقولا لي، لكنه منهج يتجاوز النصية الصرفة، مثلما يفعل المنهج الذي يحاول التوفيق بين تناقضات كهذه. حتى الاتفاق على ما تعنيه الصياغة **النصّية** يتطلب منهجا.

بالنظر لهاتين النقطتين، بماذا سأجيب على سؤالك؟ حسنا، في النقطة الأولى، كان هناك أناس يعرفون بالمعتزلة في التاريخ الإسلامي، لم يصرّوا على أن القرآن كلمة الله الأزلية. وأحد الأنصار المعاصرين لهذا الموقف هو الفيلسوف والمفكر الإسلامي الإيراني عبدالكريم سروش. وقد حاز المعتزلة شهرة واسعة حتى قررت السلطة، كالعادة، أي عقيدة ستفوز. عادة ما يحدث ذلك لأسباب سياسية، وليس لأجل قوة الأدلة. فقد حدث ذلك في مجمع نيقية، حيث اختيرت المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية، مما قاد لانتشارها في

عموم أوربا. يمكن للقرارات السياسية التي تقرها الإمبراطوريات أن تحدد، ولطالما حددت، أي عقائد تعد مستقيمة، وكذلك الحال مع الإسلام.

جزء من تاريخ الإسلام «كعقيدة شكّلتها السلطة» يكمن في قصة النزاع الإسلامي على خلق القرآن وأزليته. ولا أشير إلى هذا النزاع كي أتبنى هذه الرؤية أو تلك – فأنا لن أتخذ مواقف عقائدية هنا – بل لأوضح التنوع في علم الكلام الإسلامي التقليدي حول أسئلة كهذه. بعدما كانت المعتزلة هي العقيدة الحاكمة في عهد ما، دحرتها في النهاية عقيدة الأشاعرة، التي قادها أبو الحسن الأشعري الذي أصبحت آراؤه عن الطبيعة الأزلية غير المخلوقة للقرآن مقبولة بوصفها الاستقامة. وكان الأشعري في الواقع منشقا عن المعتزلة، مما يريك كم بلغت شعبية آراء المعتزلة ذات يوم. ولذا يعتقد معظم المسلمين اليوم بأن القرآن كلمة الله الأزلية الحرفية، رغم وجود مفكرين معتزلة جدد مثل سروش وأمثاله يطرحون الرأي المخالف.

وهكذا فنقطتي الأولى هي أن كون بعض الأشياء في وضع معين اليوم، لا يعني أنها كانت كذلك بالأمس أو ستكون عليه في الغد. فحيث لا يوجد كهنوت في الإسلام، ستستمر هذه المسائل بالتطور. لي أن أقول بأنه ما من عقيدة كانت أو ستكون عصية على التغير أبدا، وذلك لأن العقائد بُنِىً بشرية بالطبع، وأظن أن الحال سيظل كذلك دوما. ولكني أحتاج مجددا لتحديد نطاق ذلك. فأنا لا أتحدث كشخص يزعم أنه زعيم ديني أو يملك مصلحة في حل هذا النزاع العقائدي بعينه، بل أهدف فقط لإظهار مدى الانغلاق الذي آل إليه الجدل حول الإسلام، سواء أكان المجادلون مسلمين أم حتى بعضا من غيرهم.

يتمثل دوري بإثارة وطرح أسئلة شكوكية حول منهجية التفسير، والتاريخ، والهوية، السياسة، والنظم، والقيم، والأخلاق الإسلامية. ولكن د. أسامة حسن الذي يعمل إماما لمسجد وكذلك كبيرا للباحثين الإسلاميين في كويليام، يتخذ مواقف تنسب للعقائد الإصلاحية. ومع أن مواقفه ليست مواقف كويليام الرسمية – ذلك أنها مؤسسة علمانية – فإنا سندعم عمل باحثين مثل د. حسن كجزء من دورنا في استعراض التنوع في العقيدة، وأعتقد أن هذا التنوع سيقودنا إلى العلمانية والليبرالية.

هاريس: إن التوترات التي وصفتها مألوفة لدى كل المتدينين المعتدلين، لكنها تبدو مرهقة بالخصوص في ظل الإسلام. فالمشكلة هي أن المعتدلين من كل الأديان ملتزمون بتأويل، أو حتى تجاهل، الأجزاء الأخطر والأشد عبثية من نصوصهم المقدسة – وهذا الالتزام بالذات هو ما يجعلهم معتدلين. لكنه أيضا يتطلب درجة ما من النفاق الفكري، لأن المعتدلين لا يسعهم الاعتراف بأن اعتدالهم نابع من **خارج** الدين. فأبواب الخروج من

سجن النصية الكتابية لا تفتح من الداخل. وفي القرن الحادي والعشرين، فإن التزام المعتدلين بالعقلانية العلمية، وحقوق الإنسان، والمساواة بين الجنسين، وكل قيم الحداثة الأخرى – وهي قيم تقول أنت أنها يمكن أن تصبح شاملة لكل البشر – ناتج من الألف سنة الأخيرة من التطور البشري، الذي تحقق معظمه رغما عن الدين لا بفضله. وهكذا فحين يدّعي المعتدلون أنهم يعثرون على التزاماتهم الأخلاقية الحديثة ضمن النص المقدس، فالأمر يبدو كتمرين على خداع الذات. والواقع أن معظم قيمنا الحديثة **مناهضة** لتعاليم محددة في اليهودية، والمسيحية، والإسلام. وفي حال وجدنا تصريحا بتلك القيم في كتبنا المقدسة، فهو معظم الوقت ليس **بأفضل** تصريح عنها.

يبدو المعتدلون عاجزين عن تقبل حقيقة أن كل النصوص المقدسة تتضمن قدرا هائلا من الحماقة والوحشية، يمكن دوما إعادة اكتشافها وتقديسها مجددا على يد الأصوليين – ولا يوجد أي مبدأ اعتدالي **جوهري** في الدين قد يحول دون ذلك. فهذه القراءات الأصولية، بحكم التعريف تقريبا، هي الأكمل والأوضح، ولذا فهي الأصدق. يمسك الأصولي بالكتاب ويقول «حسنا، سأبدأ بقراءة كل كلمة منه، وأبذل وسعي لفهم ما يريده الله مني، وسأترك تحيزاتي الشخصية كلها خارجا». وعلى العكس، يبدو أن كل معتدل يعتقد بأن تفسيره وقراءته الانتقائية للنص المقدس أدق من كلمات الله الصريحة. كان بوسع الله فرضاً أن ينزل هذه الكتب بأي نحو شاء. ولو أراد لها أن تُفهم بروح العقلانية العلمية للقرن الحادي والعشرين، ربما كان سيهمل كل تلك الآيات حول رجم الناس حتى الموت عقابا للزنا أو السحر. ليس من الصعب حقا أن تؤلف كتابا يحظر سبايا الجنس – أورِدْ فقط سطورا قليلة بمعنى «لا تتخذوا سبايا جنس!» أو «حين تشنون حربا وتأخذون أسرى، كما قد تفعلون، لا تغتصبوا أيا منهم!» ومع ذلك فلم يكن ذلك بوسع الله. ولذا فإن توجه جماعة كالدولة الإسلامية يملك قدرا من الإقناع الفكري (وأعترف بأن قول ذلك يبدو غريبا) لأن القراءة الأشد مباشرة للنص المقدس تقترح أن الله يأمر المجاهدين باتخاذ سبايا جنس من بين المهزومين، وقطع رقاب الأعداء، وهكذا.

تصور أن نصيا ومعتدلا ذهبا إلى مطعم لتناول الغداء، وكانت القائمة تعد بأن «جراد البحر الطازج» هو تخصص المطعم. ولأن النصي يحب جراد البحر، سيقدم طلبه ببساطة وينتظر. وكذلك يفعل المعتدل، لكنه يدّعي أنه مرتاح كليا لفكرة أن جراد البحر قد لا يكون جراد بحر حقا – فلعله إوزة! ومهما يكن الغداء، فلن يحتاج لأن يكون «طازجا» بأي معنى معتاد – ذلك أن المعتدل يفهم أن معنى هذا اللفظ يتبدل حسب السياق. سيكون ذلك موقفا شديد الغرابة لو اتخذناه تجاه الغداء، لكنه أغرب بكثير فيما يخص أسئلة الوجود الأهم – لأي شيء نعيش، ولأي شيء نموت، ولأي شيء نقتل– وبالتالي، فإن إغراء النصّية ليس مما تصعب رؤيته. فالبشر يطالبون به تلقائيا في معظم أنحاء حياتهم.

ويبدو لي أن المتدينين، ما داموا **موقنين** بأن كتابهم المقدس قد كتبه أو ألهمه خالق الكون، يطالبون به أيضا.

وهكذا فحين تقول إنه ما من دين مسالم أو محارب **بطبعه**، وأن كل نص مقدس يحتاج للتفسير، فأظن أنك ستجابه بمشاكل، لأن العديد من هذه النصوص ليست بتلك المرونة. فهي ليست طيّعة **لأي** تفسير كان، وهي تلزم أتباعها بمعتقدات وممارسات محددة. لا يمكنك مثلا أن تقول بأن الإسلام يوصي بأكل البيكون[13] وشرب الكحول. وحتى لو أمكنك العثور على أسلوب ما لفهم القرآن قد يسمح بهذه الأمور، فلا يمكنك القول بأن رسالته **المحورية** هي أن على المسلم المخلص أن يتناول البيكون والكحول بقدر ما يسع الإنسان. كما لا يمكن لأحد القول بان رسالة الإسلام المحورية هي السلام. (ولكن **يحق** للمرء قول ذلك بحق الجاينية، فليست كل الأديان سواء) لا يمكن للمرء ببساطة أن يقول بأن رسالة القرآن المحورية هي احترام النساء كأكفاء للرجال خلقيا وسياسيا. بل على العكس، يمكن أن يقال بأنه في الإسلام، تتمثل الرسالة المحورية بأن النساء مواطنات من الدرجة الثانية وهن ملك للرجال في حياتهن.

أود إيضاح أني حين استخدمت ألفاظا «كالتظاهر» و «النفاق الفكري» حين التقينا أول مرة، لم أكن أصدر الأحكام عليك شخصيا. فمجرد التعايش مع معضلة المعتدل قد يكون الطريق الوحيد للأمام، لأن البديل عنه سيكون تعديلا جذريا لهذه الكتب. ولست مثاليا لدرجة أني قد أتخيل حدوث ذلك. لا يمكننا أن نقول: «أنصتوا أيها المتوحشون: إن كتبكم المقدسة ملأى بالهراء القاتل. ولأجل دفعكم للتصرف كأناس متحضرين، سنقوم بتنقيحها وتسليمكم شيئا يشبه نصوص جبران خليل جبران. ها نحن ذا... ألا تشعرون بنحو أفضل بعد أن توقفتم عن بغض المثليين؟» ولكن ذلك هو ما يجب فعله مع أي تراث فكري في القرن الحادي والعشرين. ومجددا، فهذه المشكلة تواجه المتدينين المعتدلين في كل مكان، لكنها عقبة شديدة أمام المسلمين خصوصاً.

نواز: نعم، أتفق مع هذه الجملة الأخيرة. إنها بالفعل عقبة كأداء أمام المسلمين، لأنها اليوم، وقد قلت ذلك صراحةً، إحدى أهم تحديات عصرنا لا سيّما في السياق البريطاني والأوربي، كما شهدنا في الكوارث البشعة المؤسفة التي ارتكبها إرهابيون مسلمون بريطانيون وأوربيون ضد رهائن في سوريا. علينا بالتأكيد أن نعترف بأن كل شيء نقوله قد ينطبق على اليهودية والمسيحية. لكنّ تيارا معينا من نسخة مسيّسة من الدين الإسلامي

13 لحم مقدد يتخذ من بطن الخنزير، التي تتضمن طبقات شحمية وأخرى عضلية. وقد اشتهر في الولايات المتحدة كجزء من وجبة الإفطار مع البيض. – المترجم

يتسبب في حصة تفوق حجمه من مشكلات العالم، ولذا فهناك أسباب وجيهة للتركيز على هذا التيار، وأنا لا أشك في أي من ذلك.

ولكن كحاشية فقط، أنت تقول إنه يجدر بنا في القرن الحادي والعشرين أن نملك الحق في تعديل أي كتاب مقدس، ولكن ستظل هناك قيمة بالطبع في الاحتفاظ بالنصوص كما كانت قبل ألف سنة مثلا، ولو كوثائق تاريخية. لا أظن أن المسألة هي الحالة المادية للنصوص كما نراها. وهذا ما يأخذني إلى سائر ما تحدثت عنه: أظن أن التحدي يكمن في التفسير، والمناهج التي تؤسس للإصلاح، إن كان الإصلاحيون يحافظون في الواقع على المظاهر، وإن كان هذا التحدي عصيا على القهر، وأظنه أمرا يتعلق بالتوجه.

لنبدأ من هنا: أنت بكل وضوح تتحدث من منطلق فكري، وأنت تحاول تناول ذلك باتساق، وتحاول تناوله مع فهم للتحديات المطلّة، وتحاول أن تكون حساسا ولا تضر بعملي. وأنا أقدر ذلك كله. ولكن عليك أيضا أن تعترف بأنك تتحدث من رفاهية حياتك – إذ لعلك ولدت ونشأت – في مجتمع علماني ديمقراطي ناضج. وقد يكون أحيانا من الشاق جدا أن تقوم بقفزة فكرية وتضع نفسك في عقل باكستاني عادي. فأنا أعرف العديد من الباكستانيين الملحدين الذين يحاولون – إلى جانب مسلمين ليبراليين – جعل المجتمع ديموقرطيا المجتمع من داخل باكستان. بإمكاننا أنا وأنت أن نجري هذا النقاش دون خوف، ولكن بالنسبة لهم يمكن لنقاشات مفتوحة كهذه أن تفضي للقتل.

هاريس: بالطبع. وأنا أسمع عن أناس عديدين كهؤلاء. فأنا مدرك جدا لحقيقة أن الملايين من أحرار الفكر، المسلمين اسميا، متخفّون من باب الاضطرار. وهذا أحد الأمور التي أجدها لا تطاق في التحامل الليبرالي ضد منتقدي الإسلام لا سيّما تلك الميمة المضرة «الإسلاموفوبيا»، التي يوصم بها بالتعصب كل من يرى أن الإسلام يستحق اهتماما خاصا في هذه اللحظة من التاريخ. وما يقلقني أن الكثير من المسلمين المعتدلين يعتقدون بأن «الإسلاموفوبيا» مشكلة أكبر من الإسلام النصّي. إذ يبدو أن غضبهم من أن شخصا مثلي قد يفسر الجهاد بالحرب المقدسة أشد اتقادا من تفسير الملايين من إخوتهم في الدين له بهذا النحو، وارتكابهم للكوارث نتيجة لذلك.

في الأيام الأخيرة، كانت الدولة الإسلامية تحرق السجناء أحياء في الأقفاص وتقطع رؤوس الناس بالعشرات، وتنشر بطربٍ مقاطع تشهد على هول ساديّتهم في الإنترنت. وبغض النظر عن كونها نسختهم الخاصة من مجزرة مي لاي،[14] فإن هذه الجرائم ضد

14 مجزرة مي لاي: مجزرة ارتكبها جنود أميركيون ضد قرويين فيتناميين في 16 مارس 1968، راح ضحيتها أكثر من 300 قتيل أعزل، وساهم ذيوع أخبارها في تزايد سخط المواطنين على التدخل الأميركي في فيتنام. – المترجم

الأبرياء تمثل **ما يعتنقونه دون خجل**. في الواقع، فقد أصبحت هذه المقاطع المرعبة أداة تجنيد واسعة النجاح، حيث ألهمت جهاديين شبابًا من أرجاء العالم للهجرة إلى سوريا والعراق لنصرة القضية. لا شك أن معظم المسلمين سيرتعبون من ذلك، لكنّ الواقع أنه في نفس الأسبوع الذي صعّدت فيه الدولة الإسلامية وحشيتها لقمم جديدة، شهدنا غضبا أوسع في العالم الإسلامي على مقتل ثلاثة طلاب جامعيين في كارولينا الشمالية، في ظروف كان يرجح معها أن تكون جريمة قتل ثلاثية عادية (وليست جريمة كراهية تدل على موجة من التعصب ضد الإسلام في الولايات المتحدة). واعوجاج الأولويات هذا ينتج تشكيلة مشوهة من الحساسية السياسية والتبلد الأخلاقي حيث تبدو جرائم الكره ضد المسلمين في الولايات المتحدة (وهي ضئيلة عددا، وكثيرا ما تتعلق بالملكية، وتظل أصغر بخمس مرات من الإساءات المشابهة ضد اليهود)[15] أهم بكثير من استعباد ومحو عدد لا يحصى من البشر في أرجاء العالم الإسلامي.

وكما قلت، فحتى إجراء محادثة كهذه يمثل إساءة قاتلة في العديد من الأوساط. فقد سمعت من مسلمين يخشون إخبار والديهم بأنهم فقدوا إيمانهم بالله، خوفا من أن يقوما بقتلهم. فهم يقولون أشياء مثل: «إن كان مفكر ليبرالي مثلك لا يستطيع الحديث عن الصلة بين عقائد معينة والعنف دون أن تلطخ سمعته كمتعصب، فأي أمل هناك لشخص مثلي، يساوره القلق من أن تقتله عائلته أو قريته لمجرد تعبيره عن شكوك حول الله؟» إذن نعم، أنا واعٍ بأن المرء لا يمكن أن يتحدث في باكستان كما أفعل هنا.

نواز: ذلك يثير نقطة فكرية ونقطة عملية. فكريا، لا أتقبل أن هناك قراءة صحيحة للنص المقدس جوهريا. يمكنك الآن أن تشير إلى العديد من الفقرات في القرآن والأحاديث (وقد قرأتها بالتأكيد، لأني حفظت نصف القرآن حين كنت سجينا سياسيا) قد تجدها إشكالية جدا، مقلقة جدا، وفي ظاهر الأمر، عنيفة جدا.

ولكن كما قلت، فلتفسير أي نص يحتاج المرء لمنهجية، وفي هذه المنهجية هناك اعتبارات فقهية، لغوية، فلسفية، تاريخية، وأخلاقية. لقد كتب كوينتن سكينر، من مدرسة كامبردج، بحثا أساسيا بعنوان «المعنى والفهم في تاريخ الأفكار».[16] وهذا البحث يتناول خطر افتراض أن هناك أصلا قراءة صحيحة للنصوص. وهو يطرح السؤال: هل تفصح أي كتابة عن نفسها؟ أم أننا نفرض قيما وأحكاما معينة حين نفسرها؟

---

15 وقد كان ذلك صحيحا حتى في 2002، على إثر أحداث 11 سبتمبر 2001؛ http://www.fbi.gov/stats-services/crimestats.

16 Q. Skinner, "Meaning and Understanding in the History of Ideas." History and Theory 8, no. 1 (1969): 3–53.

لا أستخدم شخصيا مصطلح القراءات «النصّية»، لأن هذا يعني أنها هي المعاني الدقيقة **الصحيحة** للنصوص. بل أسميها «الفراغية» ببساطة. بنحو مماثل لتأثير اختراع الطباعة في حركة الإصلاح، يسّر الوصول المتزايد للإنترنت توجّها أشد توزعا، وشعبية، وجماهيرية لتفسير النصوص الإسلامية. وما يهمني الآن (وهذه هي النقطة الفكرية فحسب، وسآتي على ذكر العملية بعد قليل) هو أننا لو قبلنا بأن النصوص هي في الواقع حفنة من الأفكار جمعت معا وسميت اعتباطا «بالكتاب»، فلا شيء في القراءة الفراغية للنص المقدس قد يجعلها أفضل من سائر التفاسير. والسؤال هو: هل يجدر بنا القبول بتوجه فراغي لقراءة النص المقدس – أي انتقاء آية ما ثم القول بأن هذا هو معناها الصحيح بغض النظر عن كل ما يحيط بها – أم الاعتراف بأنه ربما تكون هناك مناهج أخرى للتفسير؟

الأمر كله يتلخص في نقطة انطلاقنا: فلو افترض المرء أن قراءة صحيحة ثابتة للنص الإسلامي لم توجد أبدا، وأنها كانت دوما، منذ نشأته حتى اليوم، تحيا في روح عصرها، فإن التوجه الإصلاحي سيكون هو الأنسب فكريا، بل كنّا سنتوقع أن يصبح رأي الأكثرية اليوم. وهذا التوجه يقف بالضد من توجه تلك الأكثرية المنظمة جدا، عالية الصوت، وشديدة العنف التي لم تزل تخرس كل من سواها. ولكن، من جهة أخرى، لو انطلقنا من مقدمة أن القراءة الفراغية هي التوجه **الأصيل** إلى النص، فإن رؤية الإصلاح تملك فرصة ضئيلة في النجاح، وقد لا يوجد جواب لذلك. لكني لا أظن أن هذا السؤال قد حُلّ تماما بخصوص تفسير الدستور الأميركي، أو شكسبير، أو أي نص ديني أصلا.

وهكذا، ومن ناحية عملية، فما العمل؟ لو حاول شخص في باكستان أن يثير معي تلك الأسئلة التي طرحتها فسيقتل. وفي مناخ خانق كهذا، ما الحل؟ (لا أريد لقرائي أن يظنوا أن كل دول الأكثرية الإسلامية متشابهة. فمثلا، شهدت تركيا، في منتصف رمضان عام 2014، أول مسيرة تباهٍ للمثليين.)

قد يتمثل الطريق العقلاني للأمام بالتأسيس لفكرة أنه ما من قراءة صحيحة للنص المقدس. وذلك يسهل بالخصوص على أهل السنة – الذين يمثلون 80% من المسلمين حول العالم – لأنهم لا يملكون كهنوتاً. فلو قالت آية ما «فَضَرْبَ الرِّقابِ»، فإن الاستنتاج، رغم كل الآيات التي جاءت قبلها وكل ما يأتي بعدها، أنها تعني «اضربوا الرقاب الآن» هو ممارسة منهج تفسير معين. ولو أمكننا إشاعة تصور أن كل الاستنتاجات من النص المقدس ليست سوى تفاسير، فإن كل القراءات المتنوعة لأي كتاب مقدس ستصبح من ثم مجرد نظرات بشرية مختلفة.

سيقلص ذلك بشدّة من فرص الإسلاميين، ويقوّض من ادعاء أنهم حرّاس كلمة الله. هكذا يمكن التعبير عن ذلك بألفاظ عربية إسلامية: ليس ذلك سوى **اجتهادك** الخاص. وهذا ليس سوى **تفسيرك** للنصوص ككل. لقد دار جدال تاريخي حول إن كانت أبواب الاجتهاد مغلقة أو لا. وقد أفضى إلى استحالة إغلاقها، لأنه لا كهنوت في الإسلام السني. يمكن لأي شخص أن يفسر النص المقدس إن كان متعمقا فيه بما يكفي، مما يعني أنه يحق حتى للمتطرفين تفسير النص المقدس. وأفضل سبيل نحو تقويض إصرار المتطرفين على أن الحق معهم هو القول بأن طريقهم ليس سوى أحد طرق النظر للأمور. ولا توجد حقيقة إلا عدم وجود طريق صحيح لتفسير النص المقدس.

حين تفصّل الأمر على هذا النحو، فأنت عمليا تقول بأن ما من جواب صحيح. وفي غياب جواب صحيح، فالتعددية هي الخيار الوحيد. والتعددية ستقود إلى العلمانية، وإلى الديمقراطية، وإلى حقوق الإنسان. علينا جميعا أن نركز على هذه القيم دون أن نتساءل إن كان الإلحاد هو التوجه الأنقى فكريا. أعتقد بصدق أننا لو ركزنا على الطبيعة التعددية للتفسير وعلى الديمقراطية، حقوق الإنسان، والعلمانية – أي **على هذه القيم** – فسنصل إلى عصر من السلم والاستقرار في دول الأكثرية المسلمة، يسمح من ثم بمحادثات كهذه. وسيصبح التساؤل عن وجود الله حقا مجرد خيار، متاح أمام الجميع.

أما حاليا، فهذه النقطة مهمة مستحيلة في أكثر سياقات الأكثرية المسلمة. يحق لي القول أيضا بأنا يجب ألا نستهدف أي نص آخر، سواء أكان أدبيا أم شيئا آخر، بتصور قطعي...

هاريس: عدا أن هناك قراءات أقل وأكثر معقولية لأي نص.

نواز: نعم، طبعا. لا يمكن أن أجلس هنا وأخبرك بأني أملك قراءة تجيز أكل البيكون. وقد طرحت مثالا جيدا جدا. ولكنّ التحدي الحضاري لعصرنا هذا لن يختزل في أكل البيكون.

هاريس: لقد عرفت قلة من الناس يمكن أن يعترضوا عليك، لكني أفهم نقطتك.

نواز: هناك توجه آخر، لنستخدم البيكون كي يرمز لشيء أكبر هو القدرة على التباعد عن النظر للدين كحزمة من الأوامر الشرعية. في إحدى الروايات مثلا، يقول الرسول: «والَّذي نَفسي بِيَدِهِ! لَو لَم تُذنِبوا لَذهَبَ اللهُ بِكُم، وَجاءَ بِقَومٍ يُذنِبونَ، فَيَستَغفِرونَ اللهَ، فَيَغفِرُ لَهُم».

هذا النص وأمثاله قاد إلى نشوء مدرسة ضمن الفكر الإسلامي التراثي ترفض أي طموح للكمال الإنساني أو تحقيق اليوتوبيا على الأرض. وبالفعل، فإن العديد من الطرق الصوفية، وخاصة الملامتية والقلندرية، كانت حريصة جدا على حقها في فعل الذنوب. فقد قالت بأننا لسنا ملائكة تمشي على الأرض، والله يتوقع منا الاستغفار. ما الذي يحققه ذلك؟ بدلا من إنتاج تفسير يجيز هذا البيكون الرمزي، فهو ينتج «علاقة مع النص المقدس» تنظر إلى الآيات على نحو مختلف جدا. فهو لم يعد مسألة أوامر قانونية صارمة، بل علاقة روحية باطنية مع الله، أو سَفَراً.

هاتان المنهجيتان، أي الرأي القائل بأنه **ما من نص يفصح عن نفسه**، وأن **علاقتنا مع النص المقدس** تتعلق بالروح لا بالفقه، لا تتطلبان أن يكون الفرد مؤمنا بالله كي يسلم بهذه النقطة.

هاريس: حسنا، هذا كله لافت جدا. أوافقك في أن العثور على أساس نصّي لتفسير النصّ بليبرالية أمر لا غنى عنه. والتمييز الذي أقمته بين المشكلة الفكرية والعملية هو، في سياق هذه المحادثة، همي الأكبر. ورغم ما قلته أنا حول مشكلات الاعتدال الديني، فلا مصلحة لي في مجادلتك حول وجود الله، أو حتى حول مشروعية الاعتقاد بأن القرآن كلام الله. فأنا، كما قلت، أرغب في دعمك، وأرى عملك منصبّا على البحث عن طريق للأمام في مشكلة الإصلاح العملية.

لكني قلق من أن التقدم في المشكلة العملية سيعرقله دوما التثاقل في المشكلة النظرية. فأي موقف نتوصل إليه عبر هذا التوجه (الذي أقرّ بأنه أشد إغراء وحداثة) للتفسير سيظل غير مستقر، لأن الأصولية يمكن دوما أن تنهض من جديد. وستميل فعلا للنهوض من جديد، ما دام أي شخص يشعر برغبة في التقرب جدا من النصوص. فماذا ستقول لشخص يفكر قائلا «حسنا يا ماجد، قد تكون أذكى مني، لكني أرغب فقط في معرفة ما يقوله القرآن حقا. فهو يقول هنا أن عليّ أن أبغض الكفار وأخشاهم ولا أتخذ منهم أولياء. سأطبق ذلك إذن دون أي مراء.»

هناك موارد عديدة في القرآن والحديث تبدو أن القراءة الأوضح تؤدي فيها لشيء شبيه بالتحريم الصريح لأكل البيكون. خذ قضية الردة مثلا: فهل توصلت لطريقة لرفع الوصمة عن جريمة الفكر هذه، أو جعلها على الأقل إساءة لا يعاقب فاعلها؟

نواز: نعم، وقد نشرنا فعلا ورقة حول ذلك. لم أكتبها أنا بل د. حسن. ولقد شاهدتَ فتواه ضد الدولة الإسلامية على الصفحة الأولى من **الصنداي تايمز**.

هاريس: نعم، رأيتها. وقد نشرتها في مواقع التواصل ما أن رأيت أنك نشرتها.

نواز: نعم. لقد نشر د. حسن ورقة حول مسألة محددة هي ترك الدين وحرية الاعتقاد.[17] وبالنظر إلى الأدلة الفقهية بالتحديد، فهذه مسألة أسهل تناولا بقليل من سؤالك الرمزي عن البيكون. فتجريم الردة يقوم على حديث آحاد يبدو متضاربا مع أحاديث أخرى، وحتى مع بعض آيات القرآن. فماذا نفعل بهذا التضارب؟ هنا يفترض بالمرء أن يتعمق في المنهجيات.

لو قال شخص ما «نعم، لكن الحديث يقول هذا»، فيحق لشخص مثل د. حسن أن يقول «نعم، لكن القرآن يقول هذا». لدينا الآن مصدران يقولان أمرين مختلفين. فكيف يمكننا التوفيق بينهما؟ كيف يمكننا إشاعةُ توجهٍ أشد حذرا، كالقول «هيا نجمع بين الأشياء، لنصل إلى فهم أشد كلية لما قد يقوله النص المقدس»؟ يتطلب ذلك التنظيم على مستوى شعبي. وما لم ينشأ مكافئ علماني ديمقراطي للإخوان المسلمين – أو لكل الجماعات الإسلامية التي عملت على ترويج توجهاتها منذ 1928 – كي يدرّس هذه الورقة في حلقات درس في باكستان، مصر، سوريا أو العراق، فإن كتابات د. حسن لن تنال أي فرصة لإحداث تأثير. وهذا المستوى من التنظيم، بدلا من الرغبة في تعديل القرآن، هي ما ينقصنا.

إحدى الأمور التي حاولت فعلها في باكستان هي محاولة إنشاء حركة كهذه: فقد عملت على تأسيس «خودي»، وهي حركة اجتماعية شعبية تسعى لترويج الثقافة الديمقراطية هناك. لا نحاول فعل ذلك بداعي الضرورة العملية فقط، بل وانطلاقا من اعتقادنا الصادق في نشاط المجتمع المدني كوسيلة للتغيير.

هاريس: لا شك أنك محق حول ضرورة إنشاء حركة اجتماعية تناصر التفاسير الإصلاحية للنص المقدس. لكن محتوى النص سيظل يمثل مشكلة. فحين يحاول المرء أن يوفق بين تناقضات القرآن والحديث، كثيرا ما يضيق به الخيار بين عقوبات بشعة (كجلد الزناة) وأخرى أبشع (كرجمهم). ولذا فإن تعدد التفاسير ليس ترياقا لكل علة، لو كانت كل الخيارات سيئة.

يبدو لي أن القرآن يتضمن رسالتين محوريتين، وأنا مهتم بسماع تأملاتك حول كيف يمكن لهما أن ينفتحا أمام توجه إصلاحي؛ لأنهما، كما يُفهمان عموما، يبدوان معاديين للتعددية، العلمانية، وسائر ما تعتنقه بأسره.

17 U. Hasan, "No Compulsion in Religion: Islam & the Freedom of Belief," Quilliam Foundation, 2013; http://www.quilliamfoundation.org/free-publications/.

الأولى هي شيطنة الكافرين. فمهما ضيّقت عينيّ أو ملت برأسي، يبدو بغض الكفار والخوف منهم محوريا في القرآن. فالمسلمون يؤمرون بعدم اتخاذ أصدقاء منهم، ويؤكد لهم أن الله سيستهزئ بهم، يلعنهم، يخزيهم، ويدمرهم في يوم الحساب. في الواقع، فإن جلودهم ستشهد على سيئاتهم، وسيحترقون للأبد في جهنم. ولا يوجد ببساطة أي مجال للشك في أن الكفر، في نظر الإسلام، يعد أسوأ انحراف ممكن عن الحياة الطيبة. ورغم أن هذه الفكرة ليست غريبة عن الأديان الأخرى – فلكل من اليهودية والمسيحية نسخة خاصة منها – فالفرق يكمن في التأكيد. فالقرآن يفصّل شرور الكفر في كل صفحة منه تقريبا، ولا يعثر المرء إلا على بضع سطور شاردة – مثل «لا إكراه في الدين» (البقرة: 256) – يعارض بها رسالة التشدد العامة. وهناك أيضا عقيدة «النسخ»، التي تقول بأن الآيات اللاحقة – الأقل تسامحا إجمالا – قد أبطلت الآيات السابقة. وأنا أفهم أن البقرة: 256 قد عطّلت بهذا النحو.

الرسالة المحورية الأخرى – وهي الوجه الآخر لنفس العملة في الواقع – هي الوعد بالجنة، الذي يستخف صراحة بقيمة الحياة في هذا العالم. ومن الواضح أن الإسلام لا يتفرد بذلك أيضا، لكن الإيمان بالشهادة، وبالجهاد كسبيل لتحقيقها، هو في الأساس ظاهرة إسلامية. فالإسلام يعلّم أن الشهادة دفاعا عن الدين هي من أضمن الطرق إلى الجنة، بل الطريق الوحيد للوصول إليها فورا، بنحو يتجاوز يوم القيامة. بل تقول بعض التعاليم بأن الشهيد قد يأتي معه بسبعين من أسرته وأعزائه إلى الجنة. وكلنا يعلم عن الحور الأبكار اللاتي يضمن وجودهن تمضية الأبدية في ماخور في الهواء الطلق. إن الإيمان بأن حياة من الملذات الأبدية تنتظر الشهداء بعد الموت، يفسر لماذا يمكن لبعض الناس أن يرددوا بإخلاص «نحن قوم نحب الموت أكثر مما يحب الكفار الحياة». ومجددا، فأنا وأنت نعرف أن هؤلاء الناس لا يكذبون، فهم يؤمنون بالشهادة بصدق كما تشهد على ذلك حقيقة أنهم يضحون بحياتهم بانتظام، أو يرون أولادهم يضحون بحياتهم، دون أدنى حرج.

خلال إجرائنا لهذا الحوار، حدث هجوم مروع بشدة على مدرسة في بيشاور بباكستان، حيث قتل أفراد طالبان 145 شخصا، 132 منهم أطفال. والتفاصيل رهيبة – ولا أرغب في الاستفاضة فيها – لكن من المهم أن نستوعب اللاعقلانية والرعب اللذين تخفيهما هذه الأرقام. فنحن نتحدث عن ثلة من الشباب المستعدين لحرق معلمة وهي حية أمام أنظار تلاميذها، وقتل كل طفل تطاله أيديهم، ثم تفجير أنفسهم لتضخيم المجزرة وتجنب القبض عليهم. من الصعب جدا على معظم الناس أن يفهموا كيف لهذا السلوك أن يحدث، وهم يتخيلون عموما أن المجانين وحدهم قد يتصرفون بهذا النحو.

لكني كنت قلقا لوقت طويل من أن الإيمان بالجنة قد يقود عامة الناس لارتكاب بشاعات من هذا النوع، أو تبرير فظائع الآخرين. إليك مثلا مقتطفا من محادثة على

النت، أجراها علي رضوي مع مؤيدٍ لطالبان في أعقاب مجزرة بيشاور (ترجمها رضوي من الأردية وعدّل عليها، والمتحدث هو المؤيد لطالبان):[18]

«حياة الإنسان» لا قيمة لها إلا عندكم أيها المفكرون الماديون. أما عندنا، فهذه الحياة البشرية ليست سوى شظية ضئيلة بلا معنى من وجودنا. وهدفنا الحقيقي هو الآخرة. لا نؤمن فقط بأنها موجودة، بل نوقن بذلك.

الموت ليس نهاية الحيا، بل هو بداية الوجود في عالم أجمل بكثير من هذا. كما تعلم، فإن الكلمة [الأرديّة] للموت هي «انتقال». وهي تعني «الرحلة» لا «النهاية».

الجنة لذوي القلوب النقية، وكل الأطفال ذوو قلوب نقية. فهم لم يذنبوا بعد.. ولم يلوّثهم بعد [آباؤهم الكفار]. ونحن لم ننه حياتهم، بل منحناهم حياة جديدة في الجنة، حيث سيُحَبّون هناك أكثر مما لك أن تتخيل.

سيكافَئون على شهادتهم. كما أننا استشهدنا معهم أيضا. وآخر كلمات سمعوها كانت صيحة التكبير [«الله أكبر!»].

لن تفهموا ذلك أبدا. فلو كان إيمانكم نقيا، فلن تندبوهم، بل ستحتفلون بمولدهم في الجنة.

أعتقد بأن علينا أخذ تصريحات كهذه بكل جدية، وأفهم أن من يفكرون بهذا النحو يمثلون خطرا محدقا على الحضارة. لكنّ المشكلة أن هذا الأسلوب من التفكير يبدو من السهل تبريره بالعودة للنص المقدس. وفي أي قائمة من العقائد الإسلامية الجديرة بالإصلاح، أظن أن ما يختص منها بالكفار والشهادة يجب أن تحتل القمة.

نواز: إن الأسئلة التي أثرتها تمثل مشكلات جادة على المسلمين تناولها في عصرنا. وأنا لا أنتهج منهج الإنكار، أو دفن الرأس في الرمال. ولهذا أقوم بعملي هذا، لأني أرغب في التصدي لهذه المشكلات وجها لوجه. وأتمنى أن يتصدى لها مسلمون آخرون أيضا، ويجروا محاورات مع أمثالك وأمثال أيان، لأن هذا ما نحتاج إليه، وهو الطريق لحل كل ذلك. لقد طرح جون دونفان، المعلق الذي أدار مناظرة «إنتلجنس سكويرد» بيني وبين أيان، عليها سؤالا في مناظرة لاحقة، في منتدى ريتشموند: «حسنا، أي دور لك في هذا الجدال؟ لست مسلمة أصلا، بل أنت مرتدة. فلماذا سيأخذك أي شخص بجدية وأنتِ تناقشين الإسلام؟» فاعترضت قائلا: «في الواقع، كلا، ليس من حقك قول ذلك لأيان، لأن لها

18 علي رضوي، مُراسَلة شخصية.

دورا فعليا في هذا الحوار.» لا يمكننا سلب غير المسلمين حقهم في مناقشة ذلك، لأن على الجميع – أي البشرية بأسرها – أن يتعامل مع تداعيات فشلنا في حل هذه المشكلة. علينا – نحن المسلمين – أن نعتاد على حقيقة أن الناس سينتقدون ديننا، مثلما ننتقد كل دين آخر لأنه ليس «حقاً». قد يختار بعض الناس ترك الدين، وعلينا – نحن المسلمين – أن نتقبل ذلك، ونفهم كيف نتعامل مع المسلمين السابقين، لا بتحضر فقط بل وبأشد احترام. فانتقاد الإسلام، وانتقاد أي فكرة، ليس تعصبا. و «الإسلاموفوبيا» لفظ إشكالي وغير مفيد بطبعه. نعم، إن كراهية المسلمين عند الجماعات النيو–نازية موجودة، وهي شكل من التعصب الثقافي، ولكن يجب ألا نساوي ذلك بالحق الذي تكفله حرية التعبير في انتقاد الإسلام. فالإسلام يظل فكرة على أي حال؛ ولا يمكننا توقع أن تتقبل حسناته أو سيئاته إن لم نستطع مناقشته بصراحة. ولذا فلست ممن يحاول تجنب هذه المشكلات، بل علينا أن نناقشها وجها لوجه.

مأساة أخرى حدثت خلال انشغالنا بهذا الحوار، هي الهجمة الجهادية الإرهابية المفجعة على مكاتب مجلة «شارلي إيبدو» في باريس، فرنسا. وهذه الهجمة تعيد للصدارة أهمية التمييز بين انتقاد فكرة وإثارة جرائم كراهية ضد جماعة ثقافية محددة من الناس.

إن رأيي هو أنه ما من فكرة فوق النقد، ولا شخص دون كرامة. وكما يشير علي رضوي، فلو قلت «التدخين مضر» فذلك لا يعني أني أعتقد بأن كل المدخنين أشرار.[19] إن القلق حول إثارة الأحقاد العرقية في رسوم الكرتون أمر مشروع، لئلا تستهدف أي جماعة عرقية، وذلك هو السبب في نفورنا من الرسوم المعادية لليهود. وذلك أمر منفصل تماما عن «الازدراء» كدافعٍ للرقابة، الذي يهدف لإخراس النقد الموجه لفكرة قوية أو لمؤسسها، الملهمين للملايين. وعلينا ألاّ نخلط بين هذين الهمّين المختلفين. وهذا هو جوهر ما يجب على معظمنا، والمسلمين خاصة، أن نفكر فيه في أعقاب المأساة في فرنسا.

لنأخذ الآن بعض الأمثلة المحددة: الكحول، الردة، الكفار، والجنة، ولننظر لكل منها بالترتيب. سأركز فيما يلي على جانب «**النصوص لا تفصح عن نفسها**» من فرضيتي. لكن المرء يمكنه أيضا تناول هذه الأمور من خلال «**العلاقة التي تربطك بالنص**»، التي تنظر للدين، كما ذكرت أعلاه، كرحلة روحانية لا كحزمة من الأحكام الشرعية.

19 http://www.huffingtonpost.com/ali-a-rizvi/an-atheist-muslims-perspective-on-the-root-causes-of-islamist-jihadism-and-the-politics-of-islamophobia_b_3159286.html.

لنبدأ بالكحول، لأن الجميع يفترضون أن الكحول بكل أصنافه محرم قطعا على كل المسلمين. في اللغة العربية، الكلمة التي يفترض أنها تعني الكحول هي «الخمر». وقد جرت مناقشة تاريخية طويلة الذيل حول ما تعنيه «الخمر» وإن كانت محرمة أم لا. أحد تفاسير القرآن الأقدم كان قد ألفه الإمام أبو بكر الجصّاص،[20] وهو من أئمة المذهب الحنفي في الفقه عند أهل السنة. يُعرف عن المذهب الحنفي أنه أول مدارس التفسير، ولذا فهو الأقرب صلة بعهد النبوة. وفي تفسيره للقرآن، يناقش الجصّاص معنى «الخمر» لغويا، ويفصّل كيف أن التفسير الحرفي للكلمة عند الحنفية يشمل تحريم خمر العنب فقط. وهذا يعني أنه لدى فقهاء هذه المدرسة الأولى، كان مباحا — ويظل كذلك عند أتباع الأحناف الأوائل — أن تشرب أي صنف من الكحول عدا نبيذ العنب. ينسب هذا الرأي عند الأحناف إلى أبي جعفر الطحاوي، الذي ينسبه بدوره مباشرة إلى أبي حنيفة، مؤسس المذهب، وتلميذيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن. مجددا، **ودون أي استسهال مني**، فإني أذكر ذلك دون تحيز، ولا تفضيلا لهذا الرأي، ولكن فقط كشاهد على الأسلوب المفاجئ في مرونته الذي تمكن به مشاهير الفقهاء التقليديين من تفسير القرآن، ولتسليط الضوء على بعض التوجهات المنهجية التي تبدو ضائعة على معظمنا اليوم.

في الواقع، فبرفضهم التراجع عن المعنى اللغوي **النصّي** «للخمر»، ورفضهم شمول هذا التحريم لأي شيء سوى نبيذ العنب، أقام هؤلاء الأحناف الأوائل استدلالا شديد النصية لكنه غير فراغي. ولهذا السبب قلت سابقا بأنه في تفسير النص المقدس، توجد منهجية فقهية وكذلك منهجية لغوية.

لقد اتكل المذهب الحنفي بقوة على توجهه اللغوي في تفسير القرآن العربي. وهذا يؤكد النقطة التي طرحها كوينتن سكينر: لا يمكن للمرء تناول النص المقدس بفرضه عليه معاني اكتسبتها الكلمات اليوم، متجاهلا ما كانت تعني آنذاك.

والاستدلال لا يقف هنا. فهناك أصل يعرف **بالقياس** في التفسير الإسلامي، ويقصد به «المقارنة الفقهية». فقد قال الفقهاء من بعد الحنفية: نعم، يمكن أن نلحظ أن «الخمر» تعني النبيذ وحده، ولكن **بالقياس** — أي المقارنة — يمكن لنا القول بأن السُكْر هو السبب الواقعي لتحريم النبيذ. ومن هنا أقام سائر الفقهاء قياسا، حرّموا بفضله سائر الأشربة الكحولية. لاحظ أن هؤلاء الفقهاء أقرّوا بأن «الخمر» كانت تعني أصلا نبيذ

20 أحمد بن علي الرازي الجصاص (917–981) كان من كبار فقهاء الحنفية في عصره. اشتهر بسعة العلم والزهد، وعرض عليه منصب قاضي القضاة فرفض. وتفسيره المقصود هو «أحكام القرآن»، الذي يعد من أوائل الكتب التي خصصت لتفسير آيات الأحكام في القرآن، وليس القرآن كاملا كما فعل أبو جعفر الطبري مثلا. — المترجم

العنب. وأجابهم الأحناف بالسؤال: حسنا، إن كان الحال كذلك، فلماذا شرب صحابة النبي أشربة مخمرة أخرى؟ لا يصح القياس في وجه نص خاص، وأفعال الصحابة نص خاص. ورد عليهم فقهاء آخرون بالقول أن أفعال آحاد الصحابة ليست حجة في هذا التوجه المنهجي، وهكذا دواليك.

هاريس: هل تقول إذن بأن نفس هذه المرونة يمكن تطبيقها في مسائل الردة والشهادة؟

نواز: نعم، دون شك. وذلك أحد الأمثلة فقط. لكني تعمقت فيه كي أوضح الأهمية التي احتلتها منهجيات التفسير تاريخيا في قراءة النص الإسلامي. فقد اتخذ بعض الأحناف موقفا مشابها فيما يخص حد الردة. والحديث الذي أشرت إليه حديث آحاد يقول: «من بدّل دينه فاقتلوه». يقول بعض الأحناف أن هذا لا يمكن أن يعني «اقتلوا المرتدين»، لأن الحديث يقول «بدّل»، مما قد يعني دخول الإسلام وخروجه أيضا. لا يقول الحديث حرفيا «اقتلوا كل من ترك الإسلام لينضم لأي دين آخر». لكن المشكلة تنشأ هنا من المعاني المتعددة للّفظ العربي «دين» (ولاء أو ديانة). ولذا قال بعض الفقهاء بأن هذا الحديث لا يمكن أن يقصد به الارتداد.

ومن ثم وضع الفقهاء حديث الآحاد هذا في سياق القرآن، قائلين بأنه يناقض التحريم الصريح ضد التحويل القسري: «لا إكراه في الدين». ولذا لا يمكن «للدين» أن يقصد به «الديانة» في هذا الحديث. بل يمكن أن يشاربه إلى تغيير الولاء في نظام سياسي أي الخيانة بعبارة أخرى. ويشهد لذلك ما قام به الخليفة الأول، أبو بكر، حين شنّ فور وفاة النبي حروب «الردّة»، التي تعرف أيضا بحروب العصيان، ضد القبائل المارقة. كما قال بعض الأحناف أن حديث الآحاد هذا إنما كان يقصد هـ وجوب القتال ضد من يحاولون الانشقاق العسكري من داخل نظام قائم، أو واجب القتال على المواطنين في سياق حرب أهلية. بالطبع فإني لا أقول بأن الفقه الحنفي بأسره يمكن الإشادة به كمثال على الفضيلة، فأكثره راسخ في القرون الوسطى، بل إني أحاول فقط إثبات طبيعة التباين النصّي.

لنأخذ توجه «النصوص لا تفصح عن نفسها» هذا ونطبقه على مبدأ أساسي آخر في العقيدة قد يبدو عسيرا، وغير متوافق قطعا مع المجتمع الديمقراطي: وهو الاعتقاد الإسلاموي (لا الإسلامي التقليدي) بضرورة «الحكم بالإسلام». إن التفصيل الشامل لكون هذه البنية نابعة جزئيا وحديثا من نشأة الدولة القومية الأوربية، أمر قد يتطلب بحثا مفردا. لكنّ الإسلاميين يشيرون فعلا إلى بعض المبررات النصّية المحتمل أن تدعم هذا

الركن، ويجدر بنا تناولها. وآيات قرآنية من أمثال «إنِ **الحُكمُ** إلاّ للهِ» و «وَمَن لَمْ **يَحكُمْ** بِما أنزَلَ اللهُ فأولَئِكَ هُمُ الكافِرونَ» تعد من أكثرها ورودا في هذا الصدد.

مجددا، وعبر تطبيق منهجية لغوية، سيتعرف المرء هنا على نزاع دار حول إن كانت الجذر العربي الوارد في الآيتين، **حَكَمَ**، يقصد بها معناها الأصلي «تولّى» أو «قضى». وهذا الفرق الدقيق في اللغة يحدث فرقا هائلا. بالطبع، فإن «تولّى» قد تعني واجبا فعليا «لفرض» الإسلام «كقانون» على المجتمع. أما القضاء فهو واجب أشد سلمية يتمثل بالفصل في الأمور، مسترشدا بأوامر الله، بين من جاؤوا إليك طوعا وهم يسعون لهذا الفصل، بدلا من السعي الفاعل «للولاية» على الناس. وبهذا النحو فإن هذا النزاع اللغوي على المعنى **النصّي** لهاتين الآيتين يصبح بالغ الأهمية.

كما أن الإسلاميين الذين يصرون اليوم على ضرورة تزامن صياغة الشريعة مع القانون، هم عرضة لاتهام أن أغلب أوامر الشريعة – بغض النظر عن بضعة من العقوبات الجنائية (أو **الحدود**) – لا تحمل معها أي عقوبة جرمية دنيوية لانتهاكها. ولذا فقد قيل بأنه حتى لو التزم المرء الرؤية القائلة بأن على الناس أن «يقضوا» بحسب وحي الله، فإن الوحي ذاته لا يفرض عقوبات جرمية – وبالتالي فهو لا يحظر – معظم ما تعتبره الشريعة **حراما**. في الواقع، فعبر الاقتصار في العقوبات الجرمية على بضعة من **الحدود** – كقطع يد السارق وما شاكل – يمكن القول بأن النص يشير إلى أن كل الأفعال المحرمة الأخرى، وهي الأعم الأغلب، ليست عرضة لأي عقوبة جرمية محددة مطلقا، وبالتالي فقد تظل جائزة ولو كانت **حراما**.

سيتركنا هذا بالطبع مع مسألة الحدود ذاتها، التي تنصل منها فقهاء الخلافة العثمانية عبر توظيف مبادئ الإمام الشاطبي[21] في «مقاصد الشريعة» التي سأعود إليها فيما بعد.[22]

وبهذا النحو، يمكن الفصل بين الديني والدنيوي، وكذلك انتقاد الإسلاميين، دون الحاجة للخروج بشكل فاضح من التراث الإسلامي القائم. فإمكانية تفسير النص المقدس بهذا النحو تقوض أسس الإصرار الإسلاموي على أنهم **وحدهم** الناطقون باسم الله، **ووحدهم** القائمون بأمره.

---

21 إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت 1390 م) أصولي ولغوي من المذهب المالكي، نشأ وتعلم في غرناطة، واشتهر بتأليف كتاب **الموافقات** في أصول الفقه (الذي أصّل فيه لنظرية المقاصد) وكذلك بشرح **المقاصد الشافية** على ألفية ابن مالك، الذي طبع في عشرة أجزاء. – المترجم

22 http://faith-matters.org/images/stories/fm-publications/the-tanzimat-final-web.pdf

والأمر ذاته يصح في مسألة التعايش مع «الكفار». عادة ما تترجم كلمة «كافر» العربية إلى أخرى مشتقة من المسيحية، «infidel» (عدو الإيمان). وهناك سبب لعدم رواج الحركات الجهادية قبل بزوغ الحركات الإسلاموية في القرن التاسع عشر. فعلى مدى فترات طويلة، كان المسلمون متقدمين نسبيا. ومع أنهم كانوا يعيشون في معايير قروسطية[23] جدا، قد نجدها اليوم تبعث على القرف، فعند مقارنتهم مع مجتمعات أخرى **في ذلك العصر**، كانوا نسبيا – **ونسبيا** فحسب – متقدمين، يشجعون الرياضيات والعلوم. وذلك كله موثق بعناية.

إذن، لماذا لم نواجه مشاكل مشابهة فيما يخص التعايش مع «الكفار» في مجتمعاتهم؟ لأن هذه النقاشات كانت قد تمت بالفعل. ولكن الإسلاميين المعاصرين، ذوي التوجهات الفراغية جدا في التفسير، قد أحيوا بعضا منها. في الفضاء العقائدي، هناك مفسر، وفيلسوف، ومتصوف معروف، هو محيي الدين بن عربي. كان ابن عربي قد اقترح نظرية باتت تعرف باسم **وحدة الوجود**، تركّز على التوجه العالمي للوحدانية، الحقيقة، والإنصاف في أمور العقيدة، بغض النظر عن الإرث الديني للمرء. وقد أيد أيضا بعض أتباع الإمام الأشعري، الذي ذكرناه فيما سبق، الرأي القائل بأن من يعرفون الإسلام حقا ثم يرفضونه جحوداً عن علم –كالشيطان مثلا – هم وحدهم الجديرون بوصف **الكفار**. وهم يشيرون إلى المعنى العربي **النصّي** لكلمة **كافر**، «الذي يغطّي»، كي يستدلوا بإن إخفاء الحق فعل متعمّد، ولا يمكن نسبته إلى أي شخص لا يعترف بأنه الحق من الأساس. نظرية أخرى ذات صلة تعرف **بمقاصد الشريعة**، قدمها الإمام الشاطبي، تركز أيضا على القيم لا العقيدة، وهذه المرة في مسائل الفقه بغض النظر عن الإرث العقائدي للمرء. يتجلى من هذه النظريات العقائدية والتفسيرية أن ما يهم هو القيم التي يملكها المرء، لا النص الذي يدّعي أنه يستمدّها منه. في ملاحظاتك الافتتاحية، لمحت إلى أنه لو كانت قيم عالمية كهذه حاضرة خارج النص المقدس، فيمكن تطبيقها بالمثل على سائر النصوص المقدسة، وفي هذه الحالة ليس النص بالضرورة ما ينتج هذه القيم، فما الفائدة منه إذن؟ أعتقد أن من المهم الاعتراف بالميل البشري تجاه التقديس والدور الذي قد تقدمه الروحانية، إضافة للدور التطوري الذي يؤديه الدين. لكني أفضل شخصيا أن أركز على قيم الناس، لا الإرث الديني الذي يدّعون أنه مصدرها.

هاريس: يسرني أن أسمع عن هذه الموارد التفسيرية، ولكن يجب عليّ تقديم اعتراض وجيز على ما يبدو أنه سرد شديد الابتهاج للتاريخ الإسلامي. فمعظم التاريخ الإسلامي حمّام

23 «قَرْوَسَطِيّ» كلمة منحوتة من «قرون وسطى»، تقابل صفة Medieval الإنجليزية. – المترجم

دم بالطبع، والإسلام لا يتفرد بذلك. ولكن من المضلل ادعاء أن مشكلات الاستعلاء والتعصب الإسلامي أمور حديثة العهد. أعرف أن الإسلاموية الحديثة تعلمت بعض الحيل من الفاشية الأوربية، ولكن حين هزمت جيوش الإسلام على أبواب فينا عام 1683، كان العالم قد شهد ألف سنة من الجهاد أدت لنشر الإسلام من البرتغال إلى القوقاز، ومن الهند إلى أفريقيا السوداء. لقد انتشر الإسلام أساسا بالفتوحات لا التحول الديني. فقد أجبر الكفار على الإسلام أو القتل. وخيّر «أهل الكتاب» – أي اليهود والمسيحيون – بين دفع ضريبة حماية (**جزية**) والعيش في دولة تمييز ديني (**كأهل ذمة**). في الواقع، فإن المؤرخين المسلمين يسجلون بتفصيل شديد عدد الكفار الذين قتلوهم أو استعبدوهم ونفوهم.[24]

يبدو لي أن الأسطورة الصائبة سياسيا باتت تحل محل التاريخ في العديد من هذه الموضوعات. خذ الحملات الصليبية مثلا، فكثيرا ما يصور المسيحيون كمعتدين متوحشين والمسلمون على أنهم ضحايا رفيعو الثقافة. لكن الحملات الصليبية كانت في الأساس **رداً** على 300 عام من الجهاد (سواء أكان الصليبيون واعين بالعقيدة الإسلامية أم لا). فقد كانت استجابة للغزوات الإسلامية في أوربا، واضطهاد مسيحيي المشرق، وتدنيس الأماكن المقدسة المسيحية. ويبدو أن قلة من الناس يتذكرون أن الصليبيين **خسروا** في كل تلك الحملات إلا الأولى.

ورغم أن الحملات الصليبية كانت دون شك تعبيرا عن القبلية الدينية، فإن فكرة الحرب المقدسة تمثل تطورا متأخرا، هامشيا، ومتناقضا من نواحٍ عديدة في المسيحية ولا صلة له بأي حال بحياة يسوع وتعاليمه. ولكنّ المرء لا يسعه أنّ يقول ذلك عن مكانة الجهاد في الإسلام.

وبالمثل، فإن الوئام المتخيل للأندلس هو في الأغلب أسطورة، روجت لها أولاً روايات السير والتر سكوت، بنيامين دزرائيلي، وغيرهم ممن رسموا صورة وردية لحضارة الإسلام في أوج مجدها. وبعيدا عن تجربة بضعة من الندماء والشعراء، فلو كانت حياة اليهود طيبة على الإطلاق تحت حكم الإسلام، فهي لن تبدو كذلك إلا مقارنة مع أشد أحقاب المسيحية القروسطية دموية وعنفا. يمكننا عقد مقارنات كهذه كما أشرت، لكنّ الواقع العام كان عالما يرزح تحت خناق التخلف والعنف الديني.

لا تسئ فهمي رجاءً، فأنا لا أحاول تبرئة الغرب. فلديه الكثير مما يستحق التكفير عنه منذ عصر الإمبراطورية فصاعدا لا سيّما ممارسته للرق. ولكن كما تعرف، فإن المسلمين

---

24 وقد جمّعت بعض هذه الموادّ في كتاب أندرو بوستوم **إرث الجهاد The Legacy of Jihad**.

أيضا مارسوا الرق في أفريقيا، ويبدو أن تجار الرقيق الغربيين قد تعلموا الكثير منهم. وفي الواقع، فقد استرقّ المسلمون بانتظام أوربيين مسيحيين بيضا. فطوال مئات السنين، كان العيش أو التنقل في أي مكان من ساحل المتوسط يعني خطر اختطافك على يد قراصنة البربري وبيعك كعبد. ويعتقد أن أكثر من مليون أوربي قد استعبدهم المسلمون وشغلوهم بالسخرة في شمال أفريقيا بين القرن السادس عشر والثامن عشر.

لا أظن أن أي شيء ذي بال سيظهر من هذا التاريخ، لأننا مضطرون لمواجهة العالم كما نراه اليوم. لكني أرفض فكرة اعتبار الجهاد وكره الكفار ظاهرة حديثة. فكما تعلم، يطلق العديدون هذا الزعم رغبة منهم في تحميل الغرب وإسرائيل المسؤولية عن كل العنف الذي نشهده في العالم الإسلامي حتى الصراع الضروس بين السنة والشيعة بنحو ما. لكن المشكلة التي نحتاج لمصارعتها – وعلينا إلهام الملايين غيرنا لمصارعتها معنا – هي أنه، مهما تكن العوامل التاريخية والسياسية الأخرى ذات العلاقة، فإن واقعية الشهادة وقداسة الجهاد المسلح لا يتطرق لها الشك في الإسلام إلا كما يتطرق لقيامة يسوع في المسيحية. لا صدفة في أن ملايين المسلمين يرددون الشهادتين أو يحجون إلى مكة. ولا صدفة أيضا في أنه خلال عام 2015، استحالت المقاطع الرهيبة لقطع رؤوس الكفار والمرتدين لشكل رائج من الإباحية في أرجاء العالم الإسلامي. ولكل هذه الممارسات، بما فيها طريقة القتل البشعة هذه، دعم صريح في النص المقدس.

البحث عن طريق للأمام

نواز: إن كلماتك عن التاريخ ليست خطأ، لكني أراها ناقصة. فلم أكن أهدف لإنكار أو تبرير الوحشية التي حدثت خلال العصور الوسطى. ولست مهتما بإلقاء اللوم والمجادلة حول ماذا حدث أولا، الجهاد أم الفتوحات المسيحية. فمعظم الإمبراطوريات طوال التاريخ استخدمت شكلا من الدين لتبرر الغزو والنهب. وقد تطور الإسلام جزئيا كمسعى إمبريالي. وتولدت بعض جوانبه من افتراضات إمبريالية أواخر عصر الأنتيك.[25] وما الحلم بخلافة عالمية إلا صيغة من الخيالات الرومانية المتأخرة بإمبراطورية مسيحية عالمية. ولكن ذلك بصراحة أقل أهمية هنا. فأنا دون شك لا أحاول لوم الغرب أو إسرائيل على صعود الإسلاموية والجهادية الحديثة ولكن من السخف الشديد أن ندعي أن الاستعمار لم يلعب أي دور على الإطلاق. لكني أستعين بالتاريخ ببساطة كي أنوّه بنقطة **نسبية**. فرفض الإسلاميين والجهاديين للتعايش مع غير المسلمين هو اليوم أسوأ **نسبيا** مما في الماضي. لاحظ رغبة الدولة الإسلامية في العراق في إبادة رجال اليزيدية وسبي نسائهم بالجملة لأنهم لا يحققون التعريف الضيق «لأهل الكتاب». لكن الرقعة التي تعرف اليوم باسم العراق كانت ذات أكثرية إسلامية طوال قرون؛ كما حكم المسلمون الهند لقرون مديدة. ولكنّ المسيحيين واليزيديي ظلوا أقلية في الأولى دون إبادة بالجملة، وظل الهندوس أكثرية في الثانية. أما هذا العجز الجهادي عن تقبل أي فئة سوى اليهود والمسيحيين كأهل ذمة (لو حصل) فهو انعطافة جديدة لأسوأ تحيزاتنا القروسطية.

إن نظريات ابن عربي، وآراء الأشاعرة التي تقول بأنه لا يجدر وصف **الكافر** إلا بالمنكر العنيد الفاسق، تتخلص عمليا من فكرة الكافر، لو أردت الصدق. وأقول بأن هذه النقاشات منتهية في المعظم. لكنها أحييت من جديد لأسباب إيديولوجية، اجتما-اقتصادية، وبعد-استعمارية مختلفة.

لنأخذ رسالتك المحورية الثانية للقرآن، أي الجنة. إني أكنّ كل الاحترام لعلي أمجد رضوي؛ وأستمتع شخصيا بفكره الدقيق وتوجهه المنطقي الحريص. والاقتباس الذي ترجمه لأحد مؤيدي طالبان ونقلته أنت، هو في الواقع أفضل شاهد على اليقين الفراغي في توجه المرء للدين الذي أرغب بإبرازه. وترياقنا لهذا اليقين الجهنمي يجب ألا يقتصر ببساطة

25 عصر الأنتيك هو المرحلة الانتقالية بين العصر الكلاسيكي والعصور الوسطى. يضع عموم المؤرخين نقطة بدايته عند أزمة القرن الثالث في الإمبراطورية الرومانية (235-284 م) ونقطة نهايته عند الفتوحات الإسلامية في القرن السابع والثامن. — المترجم

على الإقرار بيقين بأن نظرته هي وحدها الصحيحة إلى فكرة الجنة، النار، وإرسال الناس إليهما.

أحد أغزر الفقهاء إنتاجا وأشهرهم (وأسوئهم) سمعة، الذي تعدّ كتاباته القديمة مما ساهم في إحياء الوهابية اليوم، هو ابن تيمية. وقد نظر أفضل تلاميذه، ابن قيم الجوزية، إلى فكرة الجنة والنار وفكر فيهما ثم قال: لحظة، لدينا اعتقاد بفكرة الإله مطلق الرحمة، واعتقاد آخر بإمكانية العقاب الأبدي في النار. ولكن كيف يكون الإله مطلق الرحمة ومطلق الانتقام معاً؟ ذلك غير معقول. ولذا فقد أخذ ابن القيم بالرأي القائل بأن النار ليست خالدة حقا. حيث ركز بالأخص على آيات في القرآن ترد فيها، بعد وصف الله للجحيم «الخالد»، شروط مثل «إلا ما شاء ربك» و «كل شيء هالك إلا وجهه».

من جديد، فإني لا أرغب بالتعمق في صلاحية أي من هذه التوجهات، أو أظل للأبد أنتقي ما يعرف بالرؤية المعتدلة لكل نص إشكالي تطرحه علي. فلكل موضوع ما عدة تفسيرات، مما يثبت عدم وجود تفسير **صحيح**. ولو استطاع المرء فهم ذلك، فسنتوصل إلى احترام للاختلاف، ما يقود للتسامح ومن ثم التعددية، وذلك بدوره يقود إلى الديمقراطية، العلمانية، وحقوق الإنسان. وهذا هو التوجه الذي يجب اتخاذه مع الدين عموما. بالطبع فإنه لن ينجح إلا لو كان خصومنا مستعدين للكلام. أما الجماعات الإرهابية التي ترغب في استهداف الأطفال وذبحهم عمدا وبالجملة كي «ترسلهم إلى الجنة» فيجب أن تُضرب بكل ما أوتي إجماعنا الحضاري العالمي من قوة، وتسحق للأبد.

هاريس: صحيح. حسنا، يشجعني هذا الكلام، رغم أني كثيرا ما **أُثبّط** حين أنظر للتفاصيل حقا. فقد ذكرت مثلا الفتوى ضد الدولة الإسلامية التي وقع عليها عدة أئمة بريطانيين، ونشرناها معا على مواقع التواصل. واضح أني أجد هذا النوع من الجهود جديرا بالشكر. لكنّ ما صدمني فيها هو الوهن الظاهر لأساسها في العقيدة الإسلامية. فهو يتلخص في الوفاء بالعهود والمواثيق – وهو واجب لا أظن أي مسلم صادق يرى أنه أقوى من الدفاع عن الإيمان. كما تشير الفتوى إلى المغول والعثمانيين كسابقات تاريخية للتسامح في ديار الإسلام. بعيدا عن مخاوفي الآنفة حول الخطأ في التاريخ – فالعثمانيون مثلا ارتكبوا مجزرة ضد المسيحيين (الأرمن، السريان، واليونان) راح ضحيتها الملايين – فإن قلقي الرئيس هو أن سابقة كهذه، لو صحت، فلا يمكن أن تصل أبدا لوطأة المثال الذي قدمه محمد نفسه الذي يوفر، كما تعلم، مسوغات وفيرة للعنف الديني.

إذن فهذه الفتوى، مع أنها أفضل من عدم وجود فتوى، هي إحدى أعراض المشكلة التي كنت أصفها. فالإصلاحيون يتّكلون على أمثلة غير عقائدية – أي مواقف تصرّف فيها المسلمون بنحو أفضل مما يأمرهم به النص المقدس – أو يشيرون إلى شيء كالالتزام

بالوفاء بالعهود والمواثيق، قد تكون له أحيانا عواقب خبيثة. فالمرء يسمع دوما مسلمين يقولون «نعم، علينا اتّباع قوانين إنجلترا لأن ديننا يأمر بالوفاء بالميثاق». لكن العديد منهم يرغبون في **تغيير** هذه القوانين، بل ويرغبون في تطبيق الشريعة في المملكة المتحدة. كثيرا ما تخفي التلويحات العلنية بالتسامح حقائق بشعة جدا حين يضع المرء في اعتباره عقيدة **التقية**، التي يقال بأنها تشجّع المسلمين على الكذب على الكفار حين يخدم الأمر أغراضهم. وأودّ أن توضح لي الأمر أكثر. ولكن قبل أن تفعل، سأقدم لك مثالا آخر من سياق غير إسلامي، كي أريك مدى الغرابة التي قد تصل إليها محادثات كهذه مع المتّقين أحيانا.

حضرت ذات مرة حفل زفاف تعرفت فيه على صديق عزيز للعريس، واتضح أن الرجل كان يهوديا أرثوذكسيا. وبعد تجاذب أطراف الحديث، سألته «ما رأيك في تلك الوحشية الواردة في سفر الخروج، اللاويين، التثنية؟ مثلا، ما قولك في ذلك الحكم على المرأة غير العذراء في ليلة زفافها — هل علينا حقا أن نأخذها إلى باب بيت أبيها ونرجمها حتى الموت؟[26] يبدو الأمر قاسيا قليلا. وأنا في الواقع راض عن المرأة التي يتزوجها صديقنا».

بدأ صاحبي من ثم بالتبرير الحاخامي حول أن هذه الأحكام التي **تبدو** وحشية يجب أن تُفهم في سياق عصرها. وغني عن القول أنه أكد لي أنها لا تنطبق اليوم. في الواقع، فقد قال إنها لا تنطبق إلا حيث يقوم السنهدرين، وهو مجلس ديني أعلى لم يقم منذ أيام الرومان.

قلت له: «حسنا، ماذا يحدث إذن حين يعود المسيح، كما تتوقع أنت بالتأكيد، ويقيم السنهدرين من جديد؟ ماذا بعد؟»

لمحت منه هنا ابتسامة مريرة لثيوقراطي محرج. وقال لي: «حسنا، هذا سؤال قيّم جدا»، لكنه لم يُجب عليه بأي جواب لافت أو حتى عاقل. بل أقرّ ببساطة بأن المسيح لو عاد وعقد السنهدرين، فعندها إذن — رغم أن الفانين من أمثالنا قد لا يفهمون الحكمة وراء ذلك — سيقتل المثليون، والزناة، والساحرات، ومنتهكو السبت، وسيطبّق كل حكم وحشي آخر ورد في العهد القديم.

وخلال تساؤلي عن أي مكان في بدنه سيتجه إليه قيئي، توصّل للدفاع النهائي عن ديانته: «أنت لا تفهم ببساطة أي بذاءة — وأي **تدنيس** — ستمثله هذه الأمور في محضر المسيح، وأمام مرأى سنهدرين مقدس بحق». وأنا حقا لا أعرف.

---

26 سفر التثنية 22: 13-21.

إن لقاءات من هذا النوع تجعلني أرغب في معرفة ما يختبئ بالضبط وراء عبارات مصوغة بعناية. وأخشى أنه حين تصدر فتوى كالتي نشرناها، مستندة إلى المعاهدات والمواثيق، فإن ثعبان الثيوقراطية سيظل قابعا بين الظلال. كما يساورني القلق من أن الأمور لو تغيرت، وقامت لدينا حكومة أكثرية إسلامية، فإن كل مظاهر التسامح ستتلاشى، وسنذهب برحلة عودة سريعة إلى القرن السابع.

نواز: نعم، وذلك خوف مشروع. لكنّ تاريخ منظمتي يشهد لها بالاتساق، ليس في بريطانيا وحدها، حيث ولدتُ ونشأتُ، بل وفي باكستان وسائر بلدان الأكثرية المسلمة. فنحن نلتزم برؤية صارمة هي أنه لا يحق في أي مكان على الأرض أن يفرض أي تفسير معين للدين على سائر المجتمع.

أما **التقية** التي ذكرتها فهي فكرة شيعية، لا تنطبق على 80% من مسلمي العالم، وهم من السنة. وهي في الواقع فكرة ضمن-دينية طوّرها الشيعة لمواجهة اضطهاد السنة. ومن المؤسف أنهم يُضطهدون مجددا في باكستان. ولا توجد عقيدة سنية مكافئة. فالسنة لا يضطرون للكذب إلا في الحرب أو تحت التهديد، كما أن كل دولة تستخدم الدعاية الحربية، لكن هذه مسألة مختلفة.

هاريس: أشك في قدرة أي جهادي أو إسلاموي سني على تبرير خداعه هذا بادعاء أنه في حالة حرب ضد كل الكفار، ولذا فلعل هذه النقطة عقيمة.

نواز: الأمر غير مهم لأنني ربما أمارس التقية الآن وأنا أشرح معنى التقية. فالمهم حقا هو أن يجري محاورون موثوقون محادثات كهذه معك، ومع أيان، ومع آخرين، لأنك حين تثق بشخص ما، فمن الأسهل بكثير أن تصغي لما يقول، بغض النظر عن كون التقية فكرة سنية أو شيعية. ولا يمكن لعلاقات كهذه أن تنشأ إلا ثمرة للجهد، ولمعرفة أننا نراعي مصالح الجميع.

أما بالنسبة للفتوى، فهي لم تعتمد على النص الإسلامي لأنها كتبت بقصد واضح هو أن تنشر في العناوين الافتتاحية للصحف، وقد تحقق لها ذلك. ولك أن تتخيل كيف أن مستندا متعمقا في الفقه لن يصل أبدا للصفحة الرئيسة في **الصنداي تايمز** اللندنية. أشجعك على قراءة أوراق أخرى للدكتور حسن، فقد ألف ورقة حول المواطنة وتوفيقها

مع الفكرة القروسطية **للذمة**، حين كانت ضريبة نفوس مفروضة على «أهل الكتاب».[27] وقد استخدم الاستدلال الفقهي كي يطوّر فكرة **الذمة** إلى سياق المواطنة الحديث.

لم تغرق الفتوى نفسها في مزيد من التفاصيل، لكنّ كثيرا من الأعمال المهمة تنجز خِفيَةً فيما يخص العديد من هذه الأفكار. والفكرة العامة عن الوفاء بالعقود والتصرف كمواطنين مسؤولين ضمن السياق البريطاني أو الأوربي تستند إلى البحث في تلك الورقة الأطول للدكتور حسن.

حين يشير د. حسن في فتواه إلى العثمانيين والمغول، فهو يشير إلى مبدأ ثابت تتفق عليه كل مدارس الفقه في الإسلام السني والشيعي، ويعرف **بالإجماع**، أو اتفاق المسلمين. فانضمام كل مجتمعات الأكثرية المسلمة للأمم المتحدة مثال على الإجماع. ويمكن الاحتجاج به كي يقال بأن المسلمين ملزمون بالالتزامات التي قطعوها أمام الأمم المتحدة لاحترام حقوق الإنسان، وما إلى ذلك.

أعتقد بأن لهذه الفتوى ثلاث منافع محددة. الأولى أمر ذكرته أنت مسبقا، وهو الاعتراف البراغماتي بأن فتوى أفضل من لا فتوى، لأنه من دونها سيستقرئ الشباب الراغبون في الالتحاق بالدولة الإسلامية صمت الفقهاء المسلمين كشكل من الرضا عن الجرائم البشعة لهذه الزمرة. ولذا فإن فتوى تدين الدولة الإسلامية أفضل من لا فتوى.

كما أني قد أثرت نقطة حين شجعت د. حسن على التصدي لهذه المهمة، فقد نصحته ألا تكتفي الفتوى بالإدانة. أظنك قد نشرت مقابلة لي على CNN ذكرت فيها أني لا أستحق شكرا منك أو من غيرك لمجرد قولي إنكم لا تستحقون الموت. إلى هنا انحطت بنا المعايير. فقد صرنا نسعد لسماع مسلم يدين الدولة الإسلامية، رغم أن القاعدة نفسها تدينها. ولذا يجب ألا تصبح إدانة الدولة الإسلامية تعريفا «للمعتدل». وهكذا فقد نصحت د. حسن بأن الفتوى يجب أن تضيف فرض مسؤولية فاعلة على المسلمين لتحدي الإيديولوجيا التي تقف وراء الدولة الإسلامية، كجزء من واجبنا المدني لمحاربة الشر. وقلت بأن المسلمين اليوم ملزمون بتحدي هذه الفكرة عن فرض الإسلام على الآخرين، لأنها لم تعد تضر غير المسلمين فحسب، بل تضر الإسلام والمسلمين أيضا. وقد عكست الفتوى هذه الرؤية.

المنفعة الثانية هي أنها توفر عذرا للفرار لأي شخص يهدف للقيام بشيء غير مسؤول ثم تخامره شكوكُ اللحظةِ الأخيرة. تذكّر أننا نتحدث عن أناس لا تثير اللغة العلمانية

27 U. Hasan, *From Dhimmitude to Democracy: Islamic Law, Non-Muslims and Equal* Citizenship, Islamic Reform Series 3 (London: Quilliam, 2015).

الإنسانوية فيهم شيئا. فهؤلاء لا يفكرون إلا بصيغٍ دينية، وأنت تعرف ذلك بفضل حواراتك مع حاخامات يهود أرثوذكس وغيرهم. إنّ الاعتقاد بأنك لو فجرت كل ما حولك فستذهب إلى الجنة بتذكرة مقطوعة يتطلب يقينا 100%. ولو أمكننا زرع ولو 1% من الشك، فلعلنا نوقف ذلك الانتحاري.

والمنفعة الثالثة هي أن الفتوى تطمّن الرأي العام، فهناك أناس آخرون في المجتمع ينظرون إلى المسلمين اليوم ويتساءلون: لم لا تدينون الدولة الإسلامية؟ لماذا تدينون أحداث غزة بكل قوة لكنكم لا تدينون الدولة الإسلامية؟ فهل تتعاطفون سرا مع أفرادها؟

هاريس: أتفق تماما، ونحن بحاجة لآلاف الفتاوى على هذه الجبهة. شيء آخر أعتقد أن علينا مناقشته هو التجاذب بين المواجهة الصريحة لمشاكل الإسلام المحافظ، الإسلاموية، والجهادية من جهة، وتقوية السرد القائل بأن «الغرب في حرب مع الإسلام». أقرّ بأني كثيرا ما ساهمت في هذا السرد شخصيا، وبنحو صريح. بالطبع، فإني حين أعرب عن قلقي من «مشكلة الإسلام»، فإني أتحدث عن قراءة نصية إجمالا (قد تسميها أنت «فراغية») للقرآن والحديث. وأنا حذر بما يكفي لأن أقول بأننا لسنا في حرب مع كل (أو حتى معظم) المسلمين. ولكن يبدو لي أنه مهما تحدّث المرء بحذر حول هذا الموضوع، فهناك مشكلة في الإدراك الإسلامي ستظل تنشأ على أساس عاملين ناقشناهما من قبل. الأول هو مشكلة الهوية: فالعديد من المسلمين يشعرون بتضامن انفعالي (واجب دينيا) مع سائر المسلمين، مهما كانت جرائمهم وحشية، فقط لأنه يصادف أنهم مسلمون. والثاني هو مشكلة الإيديولوجيا: فالنص المقدس، لو قرئ بأي أسلوب ليس بالأشد أكروباتية وإصلاحية، يبدو أنه في صالح المتوحشين.

نتيجة لهذين العاملين، أرى أن أي تصرف نتخذه ضد الجهاديين – كقصف الدولة الإسلامية، قتل أسامة بن لادن، وهلم جرا – يبدو أنه يزيد من التجنيد للجماعات المتطرفة، ومن غضب أعمّ من ذلك تجاه الغرب. فمهما كانت تدخلاتنا جراحية دقيقة أو حسنة النية، فإن بعض المسلمين يستخلصون منها أن عليهم الآن الدفاع عن دينهم ضد الكفار المعتدين، بدلا من الاعتراف بأن جماعات كالدولة الإسلامية والقاعدة هم العدو المشترك للإنسانية جمعاء. ومجددا، فإن عجزهم عن الاعتراف بهذا يبدو نابعا من هذين العاملين: أنه يحُرّم على المسلم أن يؤيد غير المسلمين الذين يُقتلون أو يُقهرون «إخوانهم وأخواتهم في الإسلام»؛ وأن جماعات كالدولة الإسلامية والقاعدة تطبق تفسيرات حرفية جدا (وبالتالي معقولة) للعقيدة الإسلامية. غني عن الذكر أن هناك أيضا مشكلة محيرة هي الأضرار الجانبية، التي تنتج أعداء حتما، لأسباب مفهومة كليا.

في ضوء هذا، أتساءل عما توصينا بفعله كي نحتوي ونستأصل (كما آمل) الظاهرة المتنامية للجهاد العالمي، ونهمّش الإسلاميين والمحافظين سياسيا وثقافيا. لا شك أن علينا البحث عن شراكة مع الدول الإسلامية كلما أمكن الأمر دون تدخل عسكري. ولكن حين لا يتوفر شركاء كهؤلاء، كيف لنا أن نتقدّم؟

نواز: أقدّر إقرارك بأن صياغتك كثيرا ما ساهمت في سردية «صراع الحضارات» هذا. فمن طبيعة العديد من الناس أنهم يميلون لسماع ما **يتوقعون** سماعه من أي متحدث. حيث يكفون عن الاستماع لكلام المتحدث ويستجيبون بدلا منها لما **يتوقعون** أن المتحدث يقوله. وهذا يحدث لي طوال الوقت، وأعتقد أنه حصل لك بضع مرار أيضا. ودفاعا عنك، فذلك أمر لا يمكن تجنبه دوما، لكننا ملزمون بمحاولة تقليصه عبر الصياغة الحذرة، ولذا شكرا لك.

إنك محق في قولك بأن تلاقي القبلية الإسلامية والنصية الفارغة يفضي إلى توجه عدائي إجمالا نحو «الآخر». وقد شجّعت ذلك أعوامٌ طويلة من الاستقطاب الإسلاموي، الذي بُني بدوره على عقود من العداء اليساري تجاه أمريكا، في ظل الأنظمة الاشتراكية البعثية، التي انحازت سياسيا للاتحاد السوفيتي.

الأمر يتطلب انقلابا كليا في أنماط الهوية الثقافية وتوجها إصلاحيا للنص المقدس. فعلى الهوية أن تبدأ بالإنسانية كمبدأ رائد، وبحقوق الإنسان كأساس. فكلمة «قومي» لا تتضمن أي مسلم ببساطة، مهما كان متوحشا. بل إن «قومي» هم البشر، ومن ثم من يشاركونني أسسي الثقافية المختلفة وقيمي الحقوقية، بغض النظر عن العرق، والجنس، والميل الجنسي، أو الدين. وبعد ذلك، فإن «قومي» هم ببساطة من يشاركونني الأرض التي أسميها وطني، أي جيراني. إن الفكرة الإسلامية عن «الأمة» تحتاج هنا لإعادة تقييم. فمعظم المسلمين ينظرون اليوم «للأمة» بوصفها مكونة من مسلمين آخرين فحسب، وهنا يمكن للقبلية أن تنشأ. ولكن عبر إلقاء نظرة أشد تكيفا إلى النصوص، فإنّ بإمكان المرء أن يعثر على رواية تقول إن النبي شمل غير المسلمين في تعريفه «للأمة» عند تأليفه لمستند – يعرف «بصحيفة المدينة» – نظّم حقوق وواجبات الذين يعيشون تحت سلطته. وكراس د. حسن الذي يستكشف طبيعة المواطنة، والأمة، وتعايش المسلمين وغيرهم سيكون مفيدا هنا.

إن هذا الإصلاح القرآني يتطلب أن ننكر على من يتناولون النصوص فراغيا – ولو بنحو معقول – حقهم في اليقين المطلق بأن رؤيتهم هي الأحق، كما حاولت فعل ذلك في حوارنا أعلاه.

لنتجه الآن إلى الدولة الإسلامية، فعلى هذا البلاء أن يُهزم عسكريا وثقافيا. لا شيء سوى الهزيمة الماحقة قد يناسب جماعة على يقين تام بأنها تنطق عن الله. وتمكن الدولة الإسلامية من إحراز النصر ضد النظام العالمي بأسره هو أفضل دوافع تجنيدهم. فهو «يثبت» أن الله معهم رغم كل الصعاب. أما الهزيمة فستثبت لمسلمي العالم أن الدولة الإسلامية لا تمثل إلا التوحش القروسطي. لن تمثل الهزيمة العسكرية إلا نجاحا قصير الأمد، ويجب أن ترافقها هزيمة ثقافية لكل ما يساندونه. لكن هذا هو الجزء الصعب، لأن الدولة الإسلامية لم تنشأ من فراغ.

طوال عقود، كانت الإيديولوجيا الإسلاموية تتفشى في القاعدة الشعبية للنشاط السياسي الإسلامي. ربما كان من المستحيل للدولة الإسلامية أن تنشأ لو لم تتوطد الإسلاموية كشكل أوحد للتعبير السياسي لدى العديد من شباب المسلمين حول العالم. ولذا فإن الاكتفاء بإدانة الدولة الإسلامية، أو هزيمتها عسكريا، ليس حلا حاسما. وبالمثل، فهذا هو السبب في أن التركيز الماضي على هزيمة القاعدة عسكريا قد ثبت عجزه. نعم، الولايات المتحدة قتلت ابن لادن، ولكنّ شيئا أسوأ (ما كنا لنتخيله من قبل القاعدة) ظهر ليحل محله. وسيستمر ذلك بالحدوث حتى (وما لم) تفنّد الإيديولوجيا التي تولّد هذه الجماعات. فالإسلاموية يجب أن تهزم.

لقد شهد العامان الأخيران من عهد جورج بوش الابن اعترافا أساسيا بهذه الحقيقة البسيطة. ولكن كما في كل التبدلات الديمقراطية، لم يرغب فريق أوباما في ترك أي شيء يربطهم بالحكمة الجمعية السابقة، حتى ما استفاد فيه فريق بوش من أخطائهم الرهيبة الوافرة. لو كانت السنوات الأولى من إدارة بوش ستصور هزليا كمحاولة لفرض القيم من فوهات البنادق، فقد تخلت إدارة الرئيس أوباما عن القيم وأبقت على البنادق.

لقد أطلقت إدارة أوباما ضربات طائرة بدون طيار أكثر مما فعل بوش إطلاقا، ونظمت «قائمة قتل» سرية، منطلقة من الرؤية القائلة بأن القاعدة أشبه بعصابة جريمة منظمة — خرّب الهرمية كي تدمر العصابة. وكانت جهودهم محاولة منسقة ويقينية للتظاهر بأن القاعدة لم تكن سوى زمرة إجرامية هامشية، وليست تمثلا واقعيا لظاهرة إيديولوجية تحظى بتعاطف جماهيري. وكان اتخاذهم لهذا الرأي نابعا جزئيا من نجاح لوبيات «رفاق الدرب» الإسلاموية في التأثير على حملة أوباما في أعقاب أخطاء سنوات بوش. ففي نظر الإسلاميين وأعوانهم، كانت المشكلة هي «التطرف المتأثر بالقاعدة»، وليس التطرف الذي أثر في القاعدة. وقد جعلنا هذا التوجه في مؤسسة «**كويليام**» محبطين للغاية. فقد أجرينا العديد من المقابلات ونشرنا العديد من الأوراق الكاشفة عن صعود هذه الإيديولوجيا على حقيقتها: كتمرد جهادي كامل الأوصاف.

إن خطأ التشخيص الأساسي هذا، وفشل الحكومة الأميركية في الاعتراف بالتمرد الجهادي، هو ما قاد لتفشي الجماعات الجهادية بعدما تركت الإيديولوجيا تنمو دون أي قيود. مؤخرا فقط، وعلى إثر النجاحات المفاجئة للدولة الإسلامية في العراق، اضطر الرئيس أوباما للاعتراف بالدور الذي تلعبه الإيديولوجيا، ومجددا فقد صرح بذلك في عاميه الأخيرين. ولكن، وفي لفتة شبه هزلية صرت أسميها **بتأثير فولدمورت**،[28] قبيل وقت هذا الحوار، ظل الرئيس أوباما عاجزا عن دفع نفسه **لتسمية** هذه الإيديولوجيا.

إن **تأثير فولدمورت** في هذا السياق يعني عدم تسمية الإسلاموية، أو تمييزها عن هذا الدين متعدد الأوجه. فعبر التركيز على الحاجة «لاستهداف إيديولوجيا الدولة الإسلامية» ثم رفض تسميتها، فإن الرئيس أوباما قد زاد من خوف الجمهور، وسهّل من دور كارهي المسلمين، الذين سيفترضون تلقائيا أن الإيديولوجيا التي قصدها أوباما هي «الإسلام»، في لوم المسلمين قاطبة.

ولكن، كما ناقشنا، فالإسلام مجرد دين. أما **الإسلاموية** فهي الإيديولوجيا التي تسعى لفرض أي صيغة من الإسلام على المجتمع. ولذا فالإسلاموية تطرف ثيوقراطي. أما الجهادية فهي استخدام العنف لنشر الإسلاموية. والإرهاب الجهادي هو استخدام العنف الذي يضرب المدنيين لنشر الإسلاموية. وما الدولة الإسلامية إلا **إحدى** جماعات الإرهاب الجهادي. لم تكن المشكلة أبدا هي التطرف «المتأثر بالقاعدة»، لأن التطرف نفسه هو الذي ألهم القاعدة، ومن ثم ألهم الدولة الإسلامية. فالتطرف هو ما يستحق التسمية – بلفظ «الإسلاموية» – والمعارضة أيضا.

صحيح أنه لا يصح للمرء قول إن الدولة الإسلامية تمثل الإسلام بأسره، مثلما لا يصح قول إنها لا تربطها **أي صلة** بالإسلام. ولكن يجب أن يتضح أن «الرغبة في فرض الإسلام» لا يمكن عقلانيا ادعاء أنها «لا تربطها أي صلة بالإسلام». فمن الواضح أن لها **صلة ما** به. قد يختلف المرء مع تفسير الدولة الإسلامية للدين، ولكن تخيل أننا سنجادل مؤيديها: هل كنا سنناقش **رأس المال** أم النصوص الإسلامية؟

علينا أن نسمي الإيديولوجيا التي تدعم الدولة الإسلامية كي نستطيع تفنيدها. فمن الضروري أن نشير للإسلاموية كي يواجه المسلمون من أمثالي خيارا واضحا. فإما أن نستردّ ديننا وسردياته، أو أن نترك المحرضين يخطبون باسمه ويفرضونه على الآخرين. إن

28 فولدمورت هو الشرير في سلسلة روايات «هاري بوتر» بقلم ج. ك. رولينغ. يشعر سائر شخوص هذه القصة بهلع شديد من فولدمورت لدرجة أنهم يشيرون إليه بلقب «من لا يجب ذكر اسمه». وقلة من المتفانين فقط مستعدون لتسمية فولدمورت باسمه الحقيقي.

مجرد تسميتها «بالتطرف» أمر نسبي وغائم جدا، ويتنصل عن مسؤولية مواجهة النصوص التي تبررها.

ولذا فليس من المفاجئ أن أي تدخل من المجتمع الدولي، مهما كان مخططا له بعناية، سيصمه الإسلاميون بنجاح أمام أنظار جمهور شعبي من المسلمين. فالسرد الإسلامي القائل بأن «الغرب» يحارب «الإسلام» مقبول أكثر في مجتمعات روّضت أذهانها عقود من التبليغ الإسلاموي. وهذا جزئيا هو ما يمنح أهمية لأن يحارب حلفاء يقودهم المسلمون شخصيا ضد الدولة الإسلامية. فنجاح هذا السرد الإسلاموي يفضي إلى سيناريو خسران متبادل للتدخل الدولي. لو أخذنا سوريا مثالا، فإنّ عدم التدخل في حربها الأهلية كان يفسر بوصفه لا مبالاة «غربية» تجاه معاناة المسلمين، أما التدخل فربما كان سيفسر كإمبريالية «غربية». ويمكن لكلا المسارين أن يوظفا لتجنيد مزيد من الجهاديين. فمن يملي السردية هو من يفرض الشروط.

إن السبيل الوحيد لمنع هذا، على المدى البعيد، هو تسهيل نشوء حركة شعبية أصيلة لترويج سرديات بديلة يمكن أن تنافس السرديات الإسلامية. ولهذا فقد أقمنا «خودي» في باكستان. لكنّ مبادرات كهذه يجب أن تشجع في أرجاء المنطقة. ونحن بحاجة لتغير ثقافي صادق ووطني، وسيتطلب هذا أعواما من العمل. ففي الوقت الحالي، يظل العمل على إصلاح الهوية الإسلامية، والتفاسير النصية، والولاءات الثقافية، وكذلك تفنيد الإيديولوجيا الإسلامية، متأخرا لعدة عقود.

هاريس: وهكذا فالتحدي الأول هو نشر الالتزام بالعلمانية في المجتمعات المسلمة شرقا وغربا. لكنّ العديد من المسلمين يربطون العلمانية بالاضطهاد الغربي والمسلم أيضا. ففي العديد من البلدان، كما تعلم، كان البديل للإسلاميين هو الاستبداد العلماني. كيف لك إذن أن تقنع 1.6 مليار مسلم بالتمييز بين وعود العلمانية وطغيان معمر القذافي، وشاه إيران، وصدام حسين، وبرويز مشرف، وهلم جرا؟

نواز: إن ما طرحته تحدٍّ حقيقي. فلو قلتُ بأن الحل للإسلاموية والأصولية الإسلامية يكمن في تشجيع التعددية، مما يقود للعلمانية، مما يقود لليبرالية، فكيف لنا إذن أن نمحو الوصمة عن العلمانية بعد كل إساءات الطغاة البعثيين العرب لها؟ لقد بلغت الوصمة من السوء حدَّ ألا تملك لغة الأردو لفظة صحيحة تعني العلمانية. بل تستخدم كلمة **لادينيت**، المشتقة من «لادينيّة» العربية. كثيرا ما اقترحت إدخال كلمة **علمانيت** إلى الأردو، بوصفها مقابلا عربيا أشد حيادا لكلمة secularism. وقد تفاقم الوضع

للأسوأ منذ الانتفاضات العربية، حيث قادت الديمقراطية لنيل الإسلاميين أكثرية في مصر، مما أدى لانقلاب علماني عربي آخر أعاد الأمور لنقطة البداية.

كبداية، يمكننا الإشارة إلى تونس، حيث مولد الانتفاضات العربية، التي شهدت تنازل حكومة ذات ميول إسلامية طوعا عن السلطة، وسماحها لحزب علماني حاز أصواتا أكبر بالمشاركة في تشكيل الحكومة من بعدها. وقد مهّد حزب النهضة ذو الميول الإسلامية الطريق لتقدم كهذا، لأنهم حين شكلوا حكومتهم بُعيد الانتفاضة، كانوا قد أسقطوا القيد الذي يشترط أن تكون صيغة ما من الشريعة هي الأساس للقانون. ولو أمكن لتوجه حزب النهضة الأشد نضجا أن ينتشر إلى مصر المجاورة، ثم المنطقة عامة، فقد يأتي من ذلك خير كثير.

ولكن لا يمكن أن يقع العبء بأكمله على الإسلاميين. فعلى الحكام العرب العلمانيين الأشداء أن يتحملوا جزءا كبيرا من العبء إذ يجب عليهم التعاون مع حركات بعد-إسلاموية شبيهة بحزب النهضة في كل بلد، للبناء على أساس النموذج التونسي وتشجيع توجهات أشد ديمقراطية في أرجاء المنطقة. ولتحقيق ذلك، فنحن بحاجة لتشكيلة من التوجهات السياسية، الفكرية، والثقافية. فالمجتمع الدولي غير مستعد لترك فرصة الديمقراطية العلمانية في الشرق الأوسط تتبدد وتتلاشى لخمسين سنة أخرى.

ولكن لا يمكن لأي من ذلك أن ينجح دون وجود مطالبة بالديمقراطية العلمانية على المستوى الشعبي. ولهذا أرى من الضروري أن يطرح عقد اجتماعي جديد للتفاوض بين العرب، لأجل العرب، وفي الشارع العربي. وهنا بالذات أعتقد أن نموذج «خودي» الذي طرحناه في باكستان، وأشرت إليه فيما مضى، يعد مهما. لقد حاولت إعداد الأساس الفكري لما قد يبدو عليه جهد كهذا في خطابي بمؤتمر TED، ولا يسعني سوى الأمل في أن يتبنى آخرون هذه القضية ويعتبروها تخصّهم.

هاريس: وكيف ترى أن بوسعنا زيادة المطالبة بالديمقراطية العلمانية على المستوى الشعبي، إنْ كانت الديمقراطية والعلمانية كثيرا ما تعتبران هجوما على الهوية الدينية؟

نواز: لن يتاح ذلك إلا بالتضافر بين تنمية المزيد من الأصوات الإصلاحية الإسلامية، وبين الأصوات الأشد تحررا، التاركة للإسلام، وغير المسلمة القادرة على الحديث بشكل نقدي حول هذه المشكلات. والحاجة ماسة لكل تلك الأمور، رغم تصاعد الانتقادات من أقصى اليمين. ولذا فإن انشغال الليبراليين والمسلمين «المعتدلين» «بنصرة» المسلمين ضد التطرف، عبر التملق والتسوية، لا يفضي إلا لأذية المسلمين ودعم المتطرفين، أما المتصدرون في أقصى اليمين فهم وحدهم الذين يعتبرون بانتظام أنداداً على الإطلاق.

هاريس: كانت هذه النقطة الأخيرة إحدى أكبر مخاوفي لأكثر من عقد. فمهما يكن مشروع إصلاح الإسلام مهولا، لا يمكن له أن يبدأ أصلا لو كان يظن أن الطريق للإمام مجرد خيار بين التفكير المتمني من جهة والتعصب من أخرى. وأنا ممتن جدا لأنك خصصت وقتا لاستكشاف طريق ثالث معي يا ماجد – يمكن فيه لمحادثة بين مسلم وغير مسلم أن تبدأ باعتراف صريح بالأفق الكامل والآليات الفعلية لمشكلة التعصب الإسلامي. فالعقائد مهمة. ومن المذهل أن من المهم أن ننوه بهذه النقطة أساسا – لكنه كذلك، مرارا وتكرارا. والأمل الوحيد للمضي لما وراء هذه الفوضى الدينية الحالية، من خلال التعددية والعلمانية، وأخيرا إلى الإجماع على القيم الليبرالية، هو تعديل قيم ملايين الناس عبر المحادثة الصادقة.

إنها لمحادثة سعدت جدا بخوضها معك يا ماجد، وآمل أن تكون فاتحة للمزيد. وغني عن الذكر أني آمل لك الأفضل في كل مساعيك.

نواز: اسمح لي باغتنام هذه الفرصة لشكرك أيضا يا سام. لا يسهل على أي أحد أن يتجاوز الانقسامات – الواقعية منها والمتخيلة – ويحاول إدارة حوار متعقل في خضم هذا الضجيج والتشوش الغامر. لا شك أنك ستدان من قبل بعض نقاد الإسلام لعدم تأكيدك على أني في الواقع جهادي متستر، مثلما سينتقدني العديد من المسلمين على خوض هذا الحديث معك.

لكني مع ذلك قد استمتعت بقدرتنا على التحدث معا عن هذه المشكلات، وآمل أيضا أن يمثل هذا الحوار سابقة للعديد من المحادثات المماثلة التي تقودنا للأمام، وأن يتبنى العديد غيرنا مهمة كهذه. وذلك بديل للعنف الذي نراه يحيط بنا، وفي النهاية قد يكون هو السبيل الوحيد للأمام. إن إصلاح توجهنا للإسلام في العصر الحديث مهمة هائلة، ولكن يجب أن تبدأ من مكان ما.

أحاول أنا وزملائي أن نلهم الناس للتفكير والحديث بهذا النحو، ولذا فقد أسسنا مؤسسة «**كويليام**». وقد كتبت سيرة حياتي «**راديكالي**» مُنَاشَدةً للآخرين. فأنا أريدهم أن يقرؤوا ويفهموا كيف أني توصلت لهذا دون أي عداوة أو خبث طوية. بل توصلت إليه بعدما بدأت إسلاميًا وحاولت أن أحقق ما لا يزال العديد من الإسلاميين اليوم يطمحون إليه. وآمل أن رحلتي ستشجع الناس على منحنا هذه الفرصة، كي يستمعوا وينصتوا لما نقول، ويشاركونا كي نتمكّن معا من التوجّه وجهةً أشد إيجابية. ولتنصرف بسلام يا سام.

لمزيد من المطالعة

هذه القائمة من القراءات المقترحة توفر مزيدا من الدعم للمواقف التي اتخذناها خلال حوارنا. ونحن إنما نقدمها على أمل أن يعمّق قراؤنا بفضلها فهمهم لهذه الأمور ويستمروا في الحوار.

— س. هـ. و م. ن.

1. **القرآن**
2. **راديكالي (Radical)** لماجد نواز
3. **نهاية الإيمان (The End of Faith)** لسام هاريس
4. **من يحتاج لدولة إسلامية؟ (Who Needs an Islamic State?)** لعبد الوهاب الأفندي
5. **لماذا لست مسلما (Why I Am Not a Muslim)** لابن الوراق
6. **حرية الدين، الردة والإسلام (Freedom of Religion, Apostasy & Islam)** لعبد الله سعيد وحسن سعيد
7. **الإرهاب والليبرالية (Terror and Liberalism)** لبول بيرمان
8. **دليل لتفنيد الفكر الجهادي: نقد ادعاءات الإسلاميين الأصوليين للأصالة العقائدية (A Guide to Refuting Jihadism)** لهانا ستيوارت ورشاد علي
9. **كافرة (Infidel)** لأيان حرسي علي
10. **العقل والحرية والديمقراطية في الإسلام** لعبد الكريم سروش (مترجم)

شكر وتقدير

يود المؤلفان أن يشكرا (بالترتيب الألفبائي الإنجليزي) أيان حرسي علي، فيصل سعيد المطر، جيري كوين، ريتشارد دوكينز، آناكا هاريس، د. أسامة حسن، توم هولاند، توماس لوبيان، ريتشل ماغارت، علي أمجد رضوي، ومارثا سبولدنغ لملاحظاتهم القيمة جدا على هذا النص.